مصر

من وجهة نظر أعمى

الكتاب: مصر من وجهة نظر أعمى/ سامح البلاح
المؤلف: البلاح، سامح
النوع: أدب ساخر
تصميم الغلاف: جيهان متولي
إخــراج داخلي: بثينة عزام
الطبعة: الأولى/ القاهرة ٢٠١١
عــدد الصفحات: ٢٠٠ صفحة
المقاس: ١٤×٢٠
تدمك:

١- مصر- الأحوال الاجتماعية

صرح للنشر والتوزيع

المدير العام: عبود مصطفى عبود

كورنيش المعادي، بجوار مستشفى السلام الدولي، أبراج المهندسـين (أ) بـرج (٢) الدور العاشر.
ت: (٢٥٢٤٠١٦٦)(٢+)
البريد الإليكتروني: darsarh@gmail.com
الموقع الإليكتروني: www.dar-sarh.com
رقـم الإيداع: ٢٠١٠/١٦٠٩٦
الترقيم الدولي: 978-977-6382-34-3
ديوي٣٠٩,١٦٢

مصــر
من وجهة نظر أعمى

بقلم

سامح البـلاح





إهـــداء

إلـــى

التي لولاها ما كتبت هذا الكتاب..

إلـــى

التي لولا حبي لها، وحرقة قلبي عليها

ما وصفتها بهذا الوصف..

نصيحة

خذها مني نصيحة مريحة قبل أن آخذ أنا وأنت الطريحة: لن أضحك عليك، هذا الكتاب لن يُضحِكَك، وإن أضحكك فسيضحك البشر كلهم عليك، فهل يقف الواحد منا أمام بيته يضحك وهو يرى البيت يحترق؟! لو كان هذا الواحد موجودًا بيننا -الآن- فإن الجميع سيجمع على أنه مجنون، وليس بعيدًا أن يكون هو الذي أشعل النار في بيته.. والحدق يفهم!

مواصفات الكتاب

طريقة استعمال الكتاب: جرعة واحدة يوميًّا للكبار فقط.

دواعي الاستعمال

- بعد سماع بيان الحكومة بمجلس الشعب.
- أثناء انعقاد المؤتمر السنوي للحزب إياه.
- مع طلَّة المتحدث الرسمي للحكومة.
- **عدد الجرعات**: جرعة واحدة يوميًّا، ولا يُسمَحُ بغيرها حتى لا تصاب بانتكاسة صحية ونفسية.

تحذير

- الكتاب به فصول خطرة قابلة للاشتعال؛ لذا يُرجى قراءته خارج المطبخ بعيدًا عن أنبوبة البوتاجاز، وخارج محطة البنزين، والمترو، والقطار، وفي مكان بعيد عن أقسام الشرطة.
- يُرجَى عدم ترك الكتاب مفتوحًا حتى لا تتعرض الحرائق للهواء الذي يزيدها اشتعالًا.
- لا يُنصَحُ بقراءته لمرضى القلب، والضغط، والسكر، حرصًا على سلامتهم التي تهمني أنا شخصيًّا.



مصـــر

أضـــاعَ غَدِي من كان في يدِه غَـــدِي

وحطَّمَنِـــي من كان يجهد في سبكـــي

فـإن كنت لا آسى لنفسي فمـــن إذن؟

وإن كنت لا أبكي لنفسي فمن يبكي؟

«لو لم تكن متأهِّبًا للموت من أجلها،

فلتحذف من قاموسك لفظة الحرية»

(مالكولم إلكس)



المقدمة

عزيزي المصري في كل مكان من أرض مصر المحروقة إذا أردت أن تُصغِيَ لما أقول فنصيحة من العبد لله أن تذهب إلى أقرب صيدلية واشترِ منها حقيبة الإسعافات الأوّلية (مش بتاع الداخلية)؛ لأني غير مسؤول عما سيشتعل على صفحات هذا الكتاب من حرائقَ، ونيران التي ليس بالضرورة أن تلسعك وتترك حروقًا - لا قدر الله - في جسدك، فهذه - بفضل الله — ستلتئم، وتُشفَى منها -بإذن الله-، لكني على يقين بأنها ستترك جروحًا، وقروحًا في قلب كل مصري، ولذلك أحضرت معي قطنًا، وشاشًا، وبعض الكبسولات المنشِّطة، والمضادات الحيوية؛ لتضميد الجراح التي نشأت عن هذه الحروق.

وقد أخليت مسؤوليتي مع أول سطر من سطور هذا الكتاب؛ لأني لو أعلنت مسؤوليتي سأُتَّهَمُ بأني العقل المدبِّر لكافة الحرائق التي اشتعلت على بر مصر كله بما فيها حريق القاهرة مع أني من مواليد الثمانينيات.. لذا فأنصحك أن تأخذ كافة احتياطاتك الأمنية وأنت تقرأ هذا الكتاب.. وإذا كنت مُتّكِلًا على خاصية الإنذار المبكّر أو على طفّاية

الحريق (اللي هي طبعًا فاضية) فقد اتكلت كما يقولون على (حيطة مايلة) أخشى أن تقع فوقك، وبعدما كنت ستموت تحت النيران تموت تحت الأنقاض، وأيًّا ما كان الأمر فكلها موتة والسلاااااااااااااااااام..

ولا أكتمك سرًّا أني احترت في بداية الأمر، وسألت نفسي أأكتب عن مصر المخترقة، أم المحترقة، ففضلت أن أكتب عن الشق الثاني مدفوعًا بكتفٍ غير قانوني وأنا أقف أمام فرن العيش، وبقلم شبه الرصاص نزل على قفا أحد المواطنين أثناء تواجدي في أحد أقسام الشرطة لاستخراج الفيش والتشبيه، وبصوت ملأ بر مصر كله من شرقها لغربها سمعته من الهتِّيفة، وهم يصرخون هاتفين: بالروح بالدم نفديك يا..

كل هذه الأشياء، وغيرها الكثير دفعني أن أكتب عن مصر التي احترقت وما زالت تحترق، وعن أوضاعها المقلوبة، والزمن المقلوب الذي يشبه المرآة المحدَّبة التي تقلب صورة من يقف أمامها..

لكن....

كان هناك توجّس من عنوان الكتاب الذي اخترته وهو (مصر المحروقة)، فالبعض رأى فيه استفزازًا للشعور الوطني، والقومية

المصرية، قد يخرج صاحبه من زمرة المصريين، وبيني وبينكم أنا ترددت كثيرًا في هذا العنوان ليس لخوفي مما قد يجره عليَّ، وإنما لأني مصري، وأبويا مصري، و(قوم يا مصري مصر بتنادي عليك)!!

وليس من المعقول - وأنا غرقان في المصرية لشوشتي - أن أدوس على بلدي، وأطرطش على صورتها الجميلة؛ لأن عندي انتماءً يملأ بَرّ مصر كله، وقد شربت من مية نيلها التي ما زالت تجري في عروقي حتى كادت تُقَطِّعُ أحشائي (لأنها – للأسف - مياه غير صالحة للاستخدام الآدمي).. ورغم أني اندعكت تحت أقدامها فسأظل لآخر رمق في حياتي أتكلّم عن مصر بكل ذوق، وأدب حتى لو كنت أنا المجروح، والمجني عليه؛ فمهما أتمرمط، أو أتبهدل فيها فليس لها ذنب في ذلك، وإنما ذنبها كله في الأفاعي التي ملأت بستانها، وأكلت وهبرت كل شيء حلو فيه.

أو لأن الذنب ذنبي، أو بالأصح الخيبة خيبتي، حيث لم أسايس أموري، وأدخل في السيستم، حتى أفهم العصر الذي أعيشه، والذي يتطلب مني أن أركب الموجة، والموجة حتجري ورا الموجة..

ولقد راجعت نفسي مرّات كثيرة، واقتنعت بأن عصر البطولات العنترية قد ولّى، وأن الإنسان مهما كان جريئًا فلا بد أن يمسك بلجام جرأته، لذا غيرت عنوان الكتاب من (مصر المحروقة) إلى (مصر من وجهة نظر أعمى).

وقد سألني البعض رغم تحفّظهم على عنوان الكتاب لما فيه من عنصرية -عن الصلة التي تربط هذا العنوان بموضوعات الكتاب، وأجيبهم بأن العَمَى من وجهة نظري صفة ملازمة للبعض ممن نقرأ لهم، ويجعلوننا نشعر بالغثيان، والقرف، عندما يتحدثون عن البلد، ومشكلاته، وفي كلامهم اتهام ضمني لنا بالعمى.

ومن جهة أخرى، تخيّلوا أعمى - مع الاعتذار الخالص له - يصف الأحوال في مصر، فماذا سيكون وصفه، مع أنه لم ير ما نرى - نحن المبصرين- وإن كان يسمع ما نسمع، ويشعر بما نشعر به.

وأيًّا ما كان الأمر، فكل مصري سيقرأ الكتاب سيجد صورته فيه أيّا كانت: محروقة.. مشوهة.. عليها make up.. فيها ورم.. فيها تجاعيد، وشقوق.. فيها خريطة مصر بواديها ودِلْتاها..

سيجد المواطنَ الذي ينحرق دمه كل يوم في زحمة الطوابير، والمواصلات..

سيسمع صرخات ركّاب قطار الصعيد، والعيّاط، وعبَّارة السلام ٢٠٠٠، واستغاثات الفتيات المغتصبات في أمواج الظلام، وبكاء الأطفال المرضى بالسرطان..

سيجد الطيور، والخنازير، والخيول، والحمير، وسيشاهدهم لأول مرة وهم مصابون بالإنفلونزا.

سيجد الشباب المحروق أخلاقيًّا، ونفسيًّا.. وهو يهرب من واقعه على نار دخان البانجو، والحشيش، أو على مركب تتوه به في عرض البحر.

سيجد اللمبي، والحمار، والخيار، والعنب، وكل الفواكه والخضراوات التي دخلت مؤخّرًا عالم الغناء.

من الآخر، سيجد مصر البهيّة أم طرحة وجلابية.. هل ما زالت - فعلًا - بهيّة، وترتدي طرحة وجلابية أم غير ذلك!

على كل حال، اسمحوا لي أن أتبحبح في الكلام، ونخلّي القعدة عربي والبساط أحمدي، ونأخذ وندِّي في الكلام من غير رغي، ولا

ثرثرة.. سأتكلم بكل صراحة -وأنا أعرف نفسي جيّدًا - ما في قلبي يتزحلق بسرعة على لساني دون مواربة، أو حرص، لذا سأُلخِّصُ العبارة تطبيقًا لنظرية شعبولَّا «هات من الآخر».. وكل لبيب بالإشارة يفهم..

مــن أنــا ؟

«أنــا شــاب لكــن عمــري ولا ألــف عــام
وحيـــد ولكـــن بـــين ضلوعـــي زحـــام
خايــف ولكن خوفي منــي أنــا..أخــرس
ولكـــن قلبـــي مليـــان كـــــلام»

«عجبي»
صلاح جاهين

السن: ٢٥ إلا ربع، وبنظرة متفائلة ٢٠ سنة و٤٠ شهرًا، وبنظرة مصرية ٦٧ سنة إلا ربع؛ لأن السنة في مصر بالنسبة لجيل الثمانينيات بألف يوم مما يعدّون.

الوظيفة: على باب الله، أنتظر الفرج الحكومي.

المؤهل: ليسانس في حب مصر.

سنة التخرج: من سبعة آلاف سنة.

الهواية: فحص الوسيط سطرًا سطرًا، وصفحة صفحة بحثًا عن فرصة عمل.



مَيّه ولاّ نار آه يا عيني

مع الاعتذار العريض للعندليب الأسمر سأستغني عن الجنة التي احتار وهو ذاهب إليها.. فليس لهذه الجنة مكان بين ما سأقوله، وإن كنت أعتقد أن كل من طالته النيران التي اشتعلت في السنوات الماضية سيكون اسمه مُسجّلًا في الكشف الذي يضم أسماء المنعَّمين في الجنة.. وليست هذه فتوى مني فلا الجنة جنّتي حتى أُدخِل فيها من أشاء.. ولا هؤلاء المحروقون لديهم واسطة لكي ينالوها؛ لأن الآخرة - ببساطة - ليس فيها كوسة، ولا خيار.. فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره..

وأعتقد كذلك أن العندليب لو كان حيًّا يُرزق الآن، وشاهد ألسنة النيران الطويلة وهي تلحس المباني لحسًا.. لقطع الشك باليقين، وعلم أن الجنة التي احتار فيها نارٌ تَلظَّى تأكل الأخضر، والأحمر، والأصفر، وكل ألوان الطَّيْفِ..

وما زلتُ أعتقد كذلك أنه لا يوجد شعب على وجه المعمورة يتمتع بحرية كاملة في وسيلة الذهاب إلى العالم الآخر كالمصريين..

فالمصريون -وحدهم دون سائر البشر- عندما يواجهون الموت؛ فإن الخيارات كلها تكون مفتوحة على مصراعيها أمامهم.. فمن أراد أن يموت غرقًا في الميَّه موجودة والحمد لله، وما عليه إلا أن (يتشعبط) في أول عَبَّارة تقابله.. ومن أراد أن يموت حَرْقًا فعليه التوجهُ فورًا إلى (وسط البلد) ويختار المكان المناسب.. وإذا كان هناك من يخاف من الميَّه، أو النار؛ فالمقطم موجود، ومستعد لأداء المهمة في أي وقت.. ومن عنده واسطة يبقى يا سعده، وهناه؛ لأنه سيجد موتة تليق بواسطته..

وعند البحث، والاستقصاء بعيدًا عن البصّاصين، والعصافير -حفظهم الله لأعشاشهم- سنجد أن عشق المصريين للميَّه، والنار ليس لأن الميَّه تطفئ نار العطشان كما توصل إلى ذلك كيميائي الغناء عبد الوهاب، وإنما لأن هلاك المصريين آخر الزمان سيكون بسبب أحدهما، فمما يثير العجب، والدهشة أنني أثناء عملية البحث، والتنقيب عن هذه الظاهرة وجدت في كتاب (الفِتَن) لأبي عمرو الداني أثرًا عجيبًا يقول: إنَّ أهل مصر يهلكون غرقًا أو حرقًا، وكأن هذا الأثر قد استشرف الأحداث، وعلم عن بعد أن أيّة كارثة تحل بالمصريين يكون مصير المصريين فيها إما الغرق، أو الحرق.

وعلى ذكر المياه، فمصر كدولة تقع بين شطّين ومَيَّه كما اكتشف ذلك الجغرافي البارع محمد قنديل، فمن الشمال يطل عليها البحر الأبيض، ومن الشرق يحتضنها البحر الأحمر، ويجري في وسطها النيل بطميه الأسود، وهذه الألوان الثلاثة تمتزج فيما بينها لتصنع الشخصية المصرية على مدار تاريخها الطويل، فهذه الألوان لها دلالة كبيرة عند المصريين، وليس أدل على ذلك من اتخاذ العلم المصري من هذه الألوان، وقد علَّمونا في المرحلة الابتدائية أن اللون الأحمر في علم مصر يدل على دماء الشهداء التي سالت على تراب هذا الوطن، واللون الأبيض يدل على عهد الحرية، والاستقلال، واللون الأسود يدل على عهد الظلم، والاستبداد، وسنوات المهانة التي عاشها هذا الوطن تحت وطأة الاستعمار.. هذه كانت دلالة الألوان الثلاثة التي لم أكن أعرف غيرها منذ أن تفتحت عيناي على عالم الألوان، ولكن بعد أن صاع العبد لله وجاع، وخضع كغيره من بني وطنه لعمليات الخصخصة، والمصمصة تغيّرت نظرته نحو هذه الألوان.. وأصبحت هذه الألوان الثلاثة لها عندي دلالة أخرى، فاللون الأحمر يدل على دم الغلابة الذي يشربه كل يوم مصاصو الدماء مِن فيالق الرأسمالية المفترية، ودراكولا

الاقتصاد المصري -الذي أصبح عظمًا بلا لحم-، واللون الأبيض يدل على الاستسلام، والخنوع، والسلبية التي أصبحت سمة العصر، أما اللون الأسود فهو يفصح عن نفسه.

وبمراجعة تاريخ الألوان، سنجد أن لها دورًا خطيرًا في لعبة السياسية، فـ(مكرم عبيد) ألّف كتابًا عن تجاوزات الحكومة الوفدية برئاسة (مصطفى النحاس)، وسمَّاه الكتاب الأسود، و(ماركس) أَلَّفَ الكتاب الأحمر، ونظَّر فيه لمذهبه وفلسفته، كما أن الأوكرانيين استخدموا اللون البرتقالي رمزًا لانتفاضتهم السياسية ضد الظلم، كذلك استخدم (القيرغيزستانيون) اللون القرنفلي رمزًا لانتفاضتهم السياسية ضد الطغيان، وفودافون اتخذت اللون الأحمر شعارًا لها، وموبينيل اتخذت اللون البرتقالي، أما اتصالات فقد اختارت اللون الأخضر لون فانلة المنتخب، فإذا كانت الألوان تلعب هذا الدور الخطير، فماذا علينا -نحن المصريين- لو استخدمنا اللون الأسود رمزًا لانتفاضتنا ضد الحزن الذي يكمن داخلنا مما يحدُثُ لنا، ومن الممكن - أيضًا - أن نتخذه رمزًا لانتفاضتنا من البرودة، ولا أقصد هنا البرودة الجوية فهذه يمكن التغلب عليها بمزيد من الدعم البطاطيني، ولكنني أقصد البرودة

الشعبية، والبرودة الحكومية التي جلبت الإنفلونزا بنوعيها للبلاد. لكني فكرت في هذا اللون كثيرًا، ورجعت عنه؛ لأنه بالتأكيد سيَجُرُّ الكثير من الويلات على من يرفع هذا الشعار الأسود؛ إذ سيتهم بالتشيع وموالاة إيران، وهذه التهمة عقوبتها الشنق على باب زويلة..

نعود إلى المياه؛ لأني حقيقة أشعر بالعطش بعد هذا النفَس الطويل في عالم الألوان، كما أن قرون الاستشعار الخاصة بي لقطت (طراطيش) كلام من القراء تتهمني بأني (بَرْبَخ) كلام، ومعهم حق في ذلك، لذا أنصحهم أن ينبهوني -دائمًا- لهذا العيب؛ لأن قلمي عنده (زهايمر)، حيث يشرع في موضوع ثم ينساه، ويلف ويدور بعيدًا عنه حول شيء آخر، وإن كان يتصل بالموضوع الأساسي من قريب، أو بعيد، فالموضوع الأساسي هنا هو المياه، ولكني نذرت صومًا حتى آخذ (لفَّة) في عالم الألوان، ودلالتها، ومع ذلك فأنا لم أذهب بعيدًا عن شاطئ هذه المياه، فالألوان لها علاقة كبيرة جدًّا بالمياه، وبينهما أوجه شبه عدّة، منها أن المياه تتشكل حَسْبَ الشيء الذي توضع فيه، كالبعض ممن يتشكلون حسب الموجة السائدة، ووَفْقَ التردد المناسب حتى يرسوا على المحطة، كذلك الألوان تتشكل حسب رؤية الفنان، وأسلوبه.

كما أن المياه من الممكن أن تتحول من حالة المرونة، والسيولة المرورية إلى حالة الجمود كموظفي الحكومة، أو إلى حالة الغازية (مش اللي في بالكم)، حيث تتحول إلى بخار ماء يطير في الهواء كقرارات مجلس الأمن. وكذلك الألوان من الممكن أن تحول حالة السيولة إلى حالة السكون كاللون الأحمر في إشارات المرور.

وأيًّا ما كان الأمر، فإني سأقول كلامًا على (ميَّه بيضا) منقاة لآخر قطرة، ومن أراد التأكد مما أقول فليسأل الميَّه فإنها تكدّب الغطّاس، وأنا بيني وبينكم أغرق في شبر ميَّه، فما بالكم وأنا أتحدث عن شطين وميَّه!!

فاسمعوا، وعوا

حريقة.. إوعى وشّك

«يــا للهــول!»

«يوسف بك وهبي»

نصحتك في أول الكتاب بأن تشتري حقيبة الإسعافات الأولية من أقرب صيدلية؛ حتى تؤمِّن نفسك من الحرائق التي ستشتعل على صفحات الكتاب، ويمكن في الصفحات السابقة لم تشم رائحة شياط؛ لأن أنوف المصريين تعوّدت على هذا الشياط، ولذلك يرون الحرائق تسير في صمت، وتحرق أغلى ما في مصر، وهو الإنسان المصري دون أن تترك في جسده حروقًا ظاهرة، وإنما تترك في قلبه، ومشاعره، وعقله جروحًا غائرة.

على كل حال، عليك أن تنتبه لنفسك في هذا الفصل، حيث إن كل سطر فيه حريقة اشتعلت، وتشتعل، وما زالت قابلة للاشتعال..

للحرائق مع مصر قصة طويلة، فبين الحين والآخر نجد حريقة تشب، وتترعرع في كل مكان، فمن حريق القاهرة إلى حريق دار الأوبرا إلى حريق قصر الجوهرة بالقلعة إلى حريق قطار الصعيد إلى حريق

مسرح بني سويف إلى حريق مجلس الشورى إلى حريق المسرح القومي، وما زال الباب مفتوحًا لحرائقَ أخرى، لا أحد يدري أين ستشتعل.

فأول هذه الحرائق حريق القاهرة، وأكيد كلكم سمعتم عنه، والذي لم يسمع أكيد شاهد فيلم رد قلبي "بتاع" إنجي وعلي.. والذي لم يسمع، ولم يشاهد أكيد خرج عن دائرة الزمن، أو بالأصح عايش في غيبوبة، أما بالنسبة لي فأنا لم أسمع، ولم أشاهد، ولم أخرج من دائرة الزمن، بل درست حريق القاهرة كغيري من الطلبة الغلبانين، حيث وجدت سطرًا عنه لم يشغل أكثر من ٥سم من الكتاب المدرسي مع أن هذا الحريق كانت مساحته الواقعية على امتداد مئات الأمتار، حيث التهمت النار في ساعات قلائل نحو (٧٠٠) محل بينها أكبر، وأشهر المحلّات التجارية في مصر، و(٣٠) مكتبًا لشركات كبرى، و(١١٧) مكتب أعمال، وشققًا سكنية، و(١٣) فندقًا كبيرًا منها: شبرد، ومترو بوليتان، وفيكتوريا، و(٤٠) دار سينما بينها ريفولي، وراديو، ومترو وديانا، وميامي، و(٨) محلات ومعارض كبرى للسيارات، و(١٠) متاجر للسلاح، و(٧٣) مقهى، ومطعمًا، وصالة منها جروبي، والأميركيين، و(٩٢) حانة، و(١٦) ناديًا. وقد أسفرت حوادث ذلك

اليوم عن مقتل (٢٦) شخصًا، وبلغ عدد المصابين بالحروق، والكسور (٥٥٢) شخصًا.

وقد استخدموا نحو (٣٠) سيّارة لتنفيذ عملياتهم في وقت قياسي، كما أن اختيار التوقيت يعد دليلًا آخر على مدى دقة التنظيم، والتخطيط لتلك العمليات.

ولا ننسى حريق دار الأوبرا، ففي فجر الثامن والعشرين من أكتوبر ١٩٧١ احترقت دار الأوبرا المصرية القديمة، وهي الأوبرا الخديوية التي تم تدشينها مع احتفالات افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩.

وثالث هذه الحرائق حريق مسرح بني سويف، ثم حريق مجلس الشورى، وأخيرًا حريق المسرح القومي.

ماذا حدث يا مصر؟!

«علشان نعلى ونعلى ونعلى... لازم نطاطي نطاطي نطاطي»

كتب الدكتور سعيد اللاوندي في كتابه «أوجاع مصريّة» الممتع تحت عنوان «الخبز تحت الأقدام، والأحذية في الفاترينة!» قائلًا: «زار صديقٌ فرنسي مصر للمرّة الأولى، وبعد عودته سالمًا سألته عن ما أعجبه في مصر، وكانت المفاجأة أن شيئًا لم يعجبه باستثناء الأهرام، لكن ما لفت نظره بشدّة كما قال لي هو أن أشياء كثيرة تسير بالمقلوب في مصر، وعندما استوضحته الأمر أجاب بأنه شاهد لأوّل مرة في حياته أناسًا يركبون الأوتوبيس من الشبّاك، وليس من الباب كما يحدث في باقي دول العالم، ومن أغرب الأشياء التي وقف لها شعر صديقي الفرنسي أنه وجد الخبز يباع مفروشًا على الأرض، تغمره الأتربة، وتستقرّ فوقه عوادم السيّارات بينما ترتفع الأحذية معلّقة داخل «فاترينات» فضفاضة ونظيفة، وتساءل صديقي الفرنسي معلقًا بحزن: كيف يحدث ذلك في بلد سبعة الآلاف سنة حضارة؟!».يا لفضيحتنا أمام الأجانب! وأي أجانب، دا الفرنسيين!

- كيف يحدث ذلك في بلد سبعة آلاف سنة حضارة؟

هذا السؤال يطرح نفسه، و(يتنطط) دائمًا في الجرائد المستقلة والمعارضة، بل (يتنطط) دائمًا في المظاهرات، والإضرابات، والاعتصامات، التي تجهر بهذا السؤال في صمت.

ومن جهتي، لو قُدِّر لي وقابلت هذا الفرنسي الذوق ولو صدفة، سأحكي له عن الأسباب التي أدت إلى هذا الوضع المقلوب.

على كل حال، ما زلت مؤمنًا بأننا في مصر نعيش دراما تلفزيونية تجسِّد صراعًا شرسًا بين (الناس اللي تحت) في سابع أرض، (والناس اللي فوق) ويمتطون السحاب؛ فالفريق الأول منذ بداية المسلسل يحاول الصعود ما وسعته المحاولة من الهاوية السحيقة التي انكتمت أنفاسه فيها، واندعكت ضلوعه من ضيقها، والفريق الآخر يهيل التراب جاهدًا على هذه الهاوية حتى يستأثر بالهواء وحده، ويرد الغطا على البير العميق الذي تكدس على آخره بالفريق الأول، وسوف يأتي يوم ينفجر هذا البير كالبركان الثائر..

- وهذا يدعوني إلى التساؤل: ما الذي حدث يا مصر؟

قلة من سكانك لا تزيد على ٣٪ تمتلك معظم الثروة، وكثرة بالغة قد تزيد على ٧٥٪ تعيش في فقر، ولا تملك أي شيء، بينما انكمشت الطبقة الوسطى إلى ٢٠٪.

- ما الذي حدث يا مصر؟!

مصالحك الحكومية تفوح منها رائحة الفساد الكريهة جدًّا، ولو جئنا بعطور العرب كلها فلن تزيلها، والوظيفة الحكومية في غالب الأحوال أصبح معناها الرِّشوة، والعمولات، واستغلال الوظيفة في الإثراء غير المشروع.

- ما الذي حدث يا مصر؟!

التعليم في أزمة لازمة، يرتكب جريمة في حق أبنائك، حيث يقتل إبداعهم، ويذبح قدراتهم، ويحشي دماغهم بمعلومات سطحية، وفي النهاية يتخرج الطالب ولم تتغير طريقة تفكيره في الحياة.

- ما الذي حدث يا مصر؟!

لم نعثر في التصنيف الدولي لأهم ٥٠٠ جامعة في العالم على جامعة مصرية واحدة من جامعاتك..

- **ما الذي حدث يا مصر؟!**

انتحرت الديمقراطية، وضاعت الحقوق، والتهميش طال الكل.

- **ما الذي حدث يا مصر؟!**

علشان نعلى ونعلى.. لازم نطاطي نطاطي نطاطي، ولذلك قيمتنا ضاعت في بلاد برّه، ولم تعد مثل زمان.

- **ما الذي حدث يا مصر؟!**

أولادك الذين يهتفون باسمك دومًا: بحبك يا مصر بجد، قيمتهم في هبوط حاد، يموتون في عبَّارة، أو طيارة، أو حريق، أو تحت صخرة، ليس هناك أية مشكلة في هذا، لذا يشعرون بأن حياتهم أصبحت بلا قيمة.

- **ما الذي حدث يا مصر؟!**

صحتنا (تبهدلت)، واتفيرسنا من الخنازير، والطيور، وفي الطريق الخيول، والحمير، والمعيز، والضغوط النفسية كثرت، وضعاف العقول، والمشردون ملأوا الشوارع.

- **ما الذي حدث يا مصر؟!**

نطفح الكُوتة (مش بتاع المرأة)، ومطحونين ليل نهار، والأجور، والرواتب ضعيفة جدًّا عندها أنيميا.

- ما الذي حدث يا مصر؟!

لا نجد مكانًا نسكن فيه، والشقق أسعارها مولّعة، والسلع الأساسية في نار هي الأخرى.

- ما الذي حدث يا مصر؟!

المرور مخنوق دائمًا، ولم يدخل العناية المركزة بعد، والحوادث في كل مكان، والكوارث (على قفا من يشيل)، ونسيت أقول لك على القفا، ما زال الضرب مستمرًا في الأقسام على القفا، وعلى أفظع من القفا.

- ما الذي حدث يا مصر؟!

أصبح أقصى طموح المواطن الغلبان أن يوفّر رغيف الخبز لأولاده، والمواطن تائه في دهاليز الحياة بحثًا عن لقمة العيش، التي تشغل باله، وينسى في سبيلها أي شيء.

- ما الذي حدث يا مصر؟!

الشباب سنُّهم وصل للثلاثين، وما زالت وسادتهم خالية، والبنات عنّست، وتتنشّق على عريس (عريس يا مَّاي!).

- ما الذي حدث يا مصر؟!

الشباب في بطالة، والكوسة زُرِعت في كل مكان، والمحسوبية انتشرت في كافة المجالات.

- ما الذي حدث يا مصر؟!

أشياء كثيرة في البلد أصبحت خارج نطاق الخدمة، أولها المواطن، والحكومة، وشبكة تليفوني المحمول.

- ما الذي حدث يا مصر؟!

المسنود أو من له ظهر هو الوحيد الذي يخترق القانون، ويتلاعب به ضاربًا بالقواعد عُرْضَ الحائط.

- ما الذي حدث يا مصر؟!

الوعي الديني غاب والدعاة منشغلون بالجعجعة الإعلامية، ومناقشات في قضايا خلافيّة تشغل الرأي العام عن الأمور الجسام، فهل يعقل أن الموظفة ممكن ترضع زميلها في العمل، والصورة أصبحت مشوّشة؛ لأن الإرسال مشوّش، والاستقبال أكثر تشويشًا.

- ما الذي حدث يا مصر؟!

القدوة فيكِ غابت، والرموز طُمِسَتْ، وأصبح القدوة إما لاعب كرة كلُّ عمله أن يجري، أو مغني يحب الحمار، ويدلّل على العنب والخيار، أو ممثّل كلُّ وظيفته أن يبوس؛ ويبوس بنات في سن أولاده.

- ما الذي حدث يا مصر؟!

الشوارع ظهر فيها الفساد الأخلاقي، من اغتصاب، وتحرّش وألفاظ بذيئة، ومخدرات، وحشيش والكل مع دماغه يعيش، وظهرت مبادئ مادية، ولا أخلاقية.

- ما الذي حدث يا مصر؟!

الخرافات انتشرت، والمنطق والفكر نام، والفوضى استحوذت على التصرّفات والسلوك.

- ما الذي حدث يا مصر؟!

معظم أفلامك، ومسلسلاتك تسخر من العقول، وتغيِّب الوعي، وتقتل الطموح، وتهدم أكثر مما تبني.

- ما الذي حدث يا مصر؟!

الإعلانات فيكِ سمَّمتِ الأفكار، وتصرف ملايين، تصوري إنهم لكي يسوِّقوا أية سلعة غذائية قلَّعوا البنات «واللي ما يشتري يتفرّج»، ونسيت أقولّك عن الفوازير، وعم كرومبو -الله يسامحه- بفوازيره الغبيّة طلّع المصريين كلّهم حرامية، ولصوص، وسمم الكثير من أفكارهم، وبعد أن كان العمل المتواصل، والمتقن، والسعي الدؤوب هو

الطريق الوحيد للثروة، رسّخ في ذهنهم -هو وغيره- أن هذا من الشعارات التي «لا تودي ولا تجيب».. وأقنعهم أن رنّة التليفون من الممكن أن تجعلهم أثرياء.

- ما الذي حدث يا مصر؟!

أخشى أن يأتي يوم يقول لنا العالم في مجال التفاخر بالحضارات: «لقد نفد رصيدكم».

- ما الذي حدث يا مصر؟!

لم نعد ننتج، وكل إنتاجنا سلع غذائية، من شبسيّات، وبسكوتات، وحلويّات، ومشروبات، وإنتاجنا الآخر لم يعد ينال ثقة زمان، لم نعد ننتج سلعة نُعْرَف بها على مستوى العالم، تصوّري أصبحنا نستورد سجادة الصلاة، والسِّبَح، وفوانيس رمضان، وحلوا حلوا عليكِ يا مصر!

- ما الذي حدث يا مصر؟!

الشعب يتمنظر، ويتفشخر بالموبايلات، و(الميزدات)، ومع ذلك يدَّعي الفقر، وضيق ذات اليد، تصوّري أننا نصرف كام مليون جنيه على چل الشعر، وحوالي ٣٥ مليار سنويًّا على الهدايا في المناسبات.

- ما الذي حدث يا مصر؟!

لا أخفيكِ سرًّا أنني ما أطلقت هذا السؤال إلا بعد أن فاض الكيل.. وعلى كل حال الوضع زي الفل، وعال العال، والحمد لله، وإنتِ أحسن من غيرك.



هي دي مصر يا ولاد

«اللي يشوف البلد دي من فوق غير اللي يشوفها من تحت»

«عادل إمام في طيور الظلام»

أقسم بالله العظيم أني أعشق تراب هذا الوطن، ولا أرضى بترابه بديلًا يضم جسمي النحيل بعد أن أنتقل إلى رحمة الله.. وإن كنت أسأت الظن فيه يومًا، أو غلطت في حقه مرة، فإني أعتذر إليه، وأبوس القدم وأبدي الندم على غلطتي في حق الوطن، ولست أنا وحدي في ذلك، بل هناك مئات الآلاف غيري ممن يكنُّون هذا الشعور الجميل لهذا الوطن العظيم، ومن أراد التأكد من ذلك فليقلّب في صفحات التاريخ والجغرافيا، ليعرف مدى صدق هذه المشاعر النبيلة.. فمَن الذي هبّ للدفاع عن البلد ضد المستعمر الذي جاءنا من كل جهة؟ ومن الذي بنى مصر، ألم يكن حلوانيًّا، أي من عامة الشعب، بل أقرب شاهد على ذلك وإن كنت ناسي أفكرك - معركة التحرير (مش المعركة التي قامت في ميدان التحرير بين الشرطة والمتظاهرين)، تلك المعركة التي طهّرنا فيها أرض سيناء من الكيان الصهيوني، فحوادث التاريخ تشهد بعظمة

المواطن المصري الأصيل، وأنا لا أقصد هنا سوى الفئة التي انطحنت، واندعكت فوق تراب هذا الوطن، وعندما رأته مغصوبًا هبّت للدفاع عنه فانطحنت، واندعكت تحت ترابه، والتخصيص هنا لا يظلم أشباه الرجال ممن يدّعون حب الوطن، ويتمضغون بالشعارات الزائفة كما اللبان.

سامحوني على طول هذه الوصلة الوطنية؛ فأنا فضلت أن يكون هناك فاصل قبل أن نواصل..

وبداية، لو تطفّلت، وسألت كل واحد على بر مصر سؤالًا في الوطنية كالسؤال الذي اختبرتْ به «نانسي» المصريين في مصريتهم - فأنا متأكد بن متأكد أن كل مصري سيتقمّص شخصية أحمد عرابي، أو مصطفى كامل، أو سعد زغلول، ويعطينا دروسًا في الوطنية.. لكن هذا مجرد كلام، والكلام كما يقولون ليس عليه جمارك (تبقى مصيبة لو الحكومة فرضت عليه هو الآخر جمارك).. وأنا أستطيع أن أتحدث كما تحدثوا عن الوطنية، والفدائية بل أغنّي (وصوتي مش ولا بد) أغاني عبد الحليم الوطنية.. وتتصدّر صورتي الصحف والمجلّات والشاشات، وأعطي المصريين دروسًا خصوصية في حب مصر أم الدنيا، بينما أنا في

الخفاء أسرقها، وأنهبها، وأمصُّ في دمها، وأمصمص عظامها هي الأخرى، ومع ذلك سيصفق لي الجميع بلا استثناء.

لذا، فأنا متأكد أن المصري الذي تجري المصرية في عروقه يغلي دمه ويفور إذا رأى فيها ما لا يسر..

وأنا-من هنا- أدعو هذا المصري ليرى مصر الحقيقية، وليست مصر التي نراها في البيان السنوي، أو الصحف المنافقة.. ولن أحمِّل الأمور فوق ما تحتمل؛ وأقسم بالله العظيم أن أقول الحق، ولا شيء غير الحق، بكل صراحة؛ لأن هذا هو مبدئي، ولن أتخلى عنه.

سأراها من عبارة السلام.. من قطار الصعيد.. من قطار العياط.. من تحت أنقاض صخرة المقطم.. من مستشفى سرطان الأطفال، والمستشفيات الحكومية.. من المعتقلات، والسجون التي اكتظت بمن فيها..

سأرى مصر من مساكن العشوائيات التي تنتشر بطول النيل.. ومن الغُرَز، وأوكار الحشيش التي تنتشر فيها.. من الفصول المدرسية التي يصل عدد الطلاب فيها إلى أكثر من ٨٠ طالب.

سأراها من مجلس النواب النيام.. من المواصلات، وعربات النقل العام.. من الماء الملوث الذي سبب التيفود، والفشل الكلوي لمعظم المصريين.

سأراها من خلال أكياس الدم الملوثة، وكوارث القتل الجماعي، ومواسم الزوابع التي تهب على البلد بين الحين والآخر، من كافة الجهات.. والتي شابت لهولها الغربان، والفئران..

سأراها من خلال أزمة التعليم، ومشاكله، وفيروس سي، وفيروس الأنفلونزا بنوعيها، وعمليات التعطيش، والتجويع التي تقوم بها مافيا الاحتكار للسوق المصرية بداية من السلع الغذائية إلى الحديد والأسمنت..

سأراها من خلال الديون التي تكبل حركة التنمية، وتعوق مسيرة التقدم، ومن خلال الفلوس المهربة، والمليارات التي طارت إلى خارج البلاد.

سأراها من منتصف خط الفقر، الذي شوى أبدان المواطن الغلبان.

سأراها من مساحات الرمال الشاسعة على جانبي واديها، وأغني "عايزينها تبقى خضرة.. الأرض اللي في الصحرا.. ونخضرها ونعمرها، ونقدمها لمصر هدية.. حاجة جميلة ومعتبرة".

سأراها من مستشفى السرطان، وغيرها من المستشفيات الملآى بمرضى السكر، والفشل الكلوي، والمصابين بفيروس (سي).

سأراها بنظرة ما يقرب من مليون مواطن مكتئب، وغيرهم الكثير ممن يعانون أمراضًا نفسية أخرى.

سأراها من ساحات المحاكم التي تشهد مئات القضايا يوميًا، ومن فوق مركب، أو عبَّارة تقل مئات الشباب الهارب بحثًا عن فرصة حياة أفضل.

أنا مش أنا

«إنت مين يا عم إنت»
«محمد سعد في اللمبي»

ماذا تفعل إذا سمعت وأنت تسير في الشارع، أو بداخل الميكروباص أحد الملاحيس، وهو يتغنى متفلسفًا: أنا مش أنا.. أنا تهت مني.. فماذا تفعل مع ابن المجنونة ده؟

ماذا تفعل لو سمعت واحدًا من جمعية مغنيِّ الحمير، يعلن عن حبه العذري، وعشقه الفاضح للحمار، قائلًا: بحبك يا حمار..

ماذا تفعل لو سمعت مغنيًا بدرجة تاجر بوكالة البلح يغني للبلح، والعنب وحدهما دون سائر الفواكه..

ماذا تفعل لو سمعت مغنيًا من الفصيلة نفسها برتبة تاجر بسوق العبور، يغني للخيار، والخيار فقط دون سائر الخضراوات..

ماذا تفعل لو وجدت كتابًا في المكتبات (إن كنت من زوارها) بعنوان (طظ فيكم!) أو بعنوان (حمرا)، أو بعنوان (اعمل عبيط)، أو بعنوان (الشعب عامل دماغ).

ماذا تفعل مع دبّور، وكركر، وكتكوت، وغيره من سكان عشة الفراخ؟

ماذا تفعل حين تسمع واحدًا من الطائفة اللمباوية يصبَّح عليك قائلًا: صبح تاتا يا باكو شيكولاته.. أو يقول لك: إوعى الفحت لتقع تحت.. أو ورينا عرض قفاك وكتافك.. أو كشكشها ما تعرّضهاش .. أو اتَّاخر وهات من الآخر.. إلى غير ذلك من قمامة القول.

بل ماذا تفعل مع أذنك حين تسقط فيها هذه الكلمات الهابطة، واللغة الزبالة..

ماذا تفعل مع هذه الظاهرة العامة المنتشرة على بر مصر كله، والتي تؤكد أننا نعيش في عصر الهمكبة، والدربكة، والهيصة، والمهيصة.

كما تؤكد أن الشعب تاه في دهاليز الحياة، ولم يتوقف الأمر على التوهان فقط، بل هذا التوهان تبعه غيبوبة كاملة، وشلل دماغي، ولا غرابة في هذا خصوصًا وأن الشعب يوميًا يأخذ جرعات مكثفة من التغييب، والتهيسس إلى آخر هذه الحوارات بلغة الشباب الروش.

فهذه الجرعات المركزة هي التي أصابت المواطن المصري بحالة حرجة من التوهان؛ فمن الطبيعي - إذن - أن يتوه في معمعمة العيشة واللي عيشنها في مصر.

من الطبيعي أن يتوه المواطن المصري وحياته كلها طوابير في طوابير، فيومه يبدأ بطابور وينتهي بطابور، ومن طابور لطابور يا قلبي لا تحزن..

من الطبيعي أن يتوه المواطن المصري بعد أن انفرمت أشلاؤه في قطار الصعيد، وقطار العياط، وفي عبَّارة السلام، وفي مسرح بني سويف..

من الطبيعي أن يتوه المواطن، ويندعك في زحمة المواصلات، وأتوبيسات النقل العام، وعربات المترو، وزحمة الفصول المدرسية، والجامعات.

من الطبيعي أن يتوه المواطن، وينحرق من نار الأسعار التي تشعلل من آن لآخر.

من الطبيعي أن يتوه المواطن، ويغمى عليه تحت وطأة الجوع والبهدلة التي يعيشها.

من الطبيعي أن يتوه المواطن وسط أكوام الزبالة، والقمامة التي تملأ البلد، وهو يبحث عن لقمة عيش يقتات بها.

من الطبيعي أن يتوه المواطن وقد نشأ طفلًا في الشوارع بلا مأوى ولا مسكن.. ومن الطبيعي أن ينخبل، ويلصق بالحيط، وهو يشاهد السحل، والضرب في المظاهرات.

من الطبيعي أن يتوه المواطن في الميادين، والشوارع، وعلى المقاهي في رحلة بحثه عن وظيفة يبني بها مستقبله.

من الطبيعي أن يتوه المواطن، ويغمى عليه بعد فقر الدم، والجيوب الذي أصابه على يد مصاصي الدماء وشفاطي الجيوب.

من الطبيعي أن يتوه المواطن في المصالح الحكومية أثناء رحلة العذاب لتخليص بعض الأوراق الرسمية.

من الطبيعي أن يتوه المواطن، وينقصف عمره، وهو يبيت ويصبح بين نموين ؛ نمو سكاني يزداد ونمو اقتصادي يتباطأ.

من الطبيعي أن يتوه المواطن في هوجة الدعاة الذين يملؤون الفضائيات، ويحرمون عليه عيشته ليل نهار.

من الطبيعي أن يتوه المواطن بعد أن أصبحت حياته ضائعة بلا قيمة.. رخيصة بلا ثمن.. يموت غرقًا في عبارة شيء عادي.. يموت حرقًا في قطار شيء عادي جدًّا، ويحدث في أرقى الأمم، وكله قضاء وقدر.. يموت مصابًا بالأمراض الخبيثة الآتية من أكياس دم ملوّثة شيء عادي.. يموت بأنفلونزا الطيور بأنفلونزا الخنازير هو وحظّه..

وأيًّا ما كان سبب التوهان، فإن الشعور بالإحباط، واليأس، والظلم، وغياب العدالة كان أول خطوة في طريق هذا التوهان، لذا يجب إطلاق حملة شعبية للبحث عن هذا المواطن المسكين؛ لإدخاله إلى غرفة الإنعاش، أو الرعاية المركَّزة، وإفاقته من الغيبوبة التي أصيب بها، باستخدام الوسائل كافة، وإلا فلنُصَلّ عليه صلاة الغائب.

لقد كان هذا المواطن حاضرًا بكل ثقله على الساحتين العربيّة والدوليّة، وفي كل إنجاز، وإعجاز يقوم به يعلن عن نفسه بكل فخر: أنا المصري كريم العنصرين، فيُعرف وَسْط العالم كله بإنجازاته التي جعلت مصر تتحدث عن نفسها أمام العالمين، أمّا الآن فضاعت الهُويَّة واختفت

الشخصية، لذا من الطبيعي أن نسمع من حين لآخر الأغنية الفلسفيّة: «أنا مش أنا».

وبما أننا نعيش حالة من التوهان فتعالوا نتابع مع بعض غرائب، وطرائف الجماعة التائهين في مصر، وأعلن -وأنا في كامل قواي العقلية والبدنية- أن العبد لله مش معاهم!

أغرب شيء في هذا العصر أن نأخذ الحكمة من أفواه المغنّيين.. إذ أصبح لدينا فجأة في الوسط الغنائي فريق من الفلاسفة، والحكماء يضارعون فلاسفة اليونان، إلا أن الفرق بينهم وبين فلاسفة اليونان أنهم يعطونك فلسفتهم على واحدة ونص.

فهناك المعلم الأول صاحب فلسفة «أنا مش أنا»، والفيلسوف الملهم الذي قال: «وبقيتي يا دنيا ماشية على الرقص وعلى الصاجات»، والعاشق الولهان صاحب فلسفة الحب الحيواني، وغيرهم من أصحاب التفانين الملهمين.

أغرب شيء وهو طبيعي لأي واحد تائه من زمان، أن المصري يعجِّز بدري بدري، فالمصري من كثرة الهموم، والغموم التي تحيط بحياته من كل جانب أصبحت السَّنة التي تمر عليه في مصر كألف سنة

مما يعدون، ولذلك المصري دون سائر البشر يشيخ وهو في سن الشباب، ويشيب شعره قبل الهرم بكثير.

أغرب شيء في عالم التوهان المصري أن تقرأ للمسؤول الفلاني في صفحات أيّة جريدة قوميّة، أو تسمعه في برامج التلميع الإعلامي يقول أرقامًا تجعلك تطير في الهوا من كثرة الفرحة، ثم فجأة تسقط من الصدمة على أرض الواقع.

أغرب شيء في عالم التوهان المصري، أن يرتفع سعر لتر السولار بين عشية وضحاها، وفي ضحاها تجد كل شيء في البلد ارتفعت أسعاره بحجة ارتفاع سعر الجاز، مع أن هذا الشيء لا علاقة له بالجاز من قريب أو بعيد.

والأغرب من هذا كله أن حالة التوهان هذه قد شملت قطاعات عريضة في المجتمع المصري، بداية من المثقّفين الكهربائية أصحاب نظرية التنوير، ومرورًا بالشباب أصحاب نظرية الروشنة، والسلفنة، وانتهاء بالفلاحين البسطاء أصحاب نظرية التبوير.

وسأقتصر هنا على الشباب؛ فهم المحرّك الديزل الذي يدفع الأمة إلى الأمام، بقوة مليون حصان، لكن للأسف هذا المحرّك عطلان من

فترة طويلة، وليس معنى عطلان أنه خارج نطاق العمل فحسب، بل - أيضًا - خارج نطاق الخدمة نتيجة للإهمال الجسيم في صيانته، ولعل هذا يفسر سر ركودنا طوال هذه المدة في محطة التقدم.

الشباب في هذا العصر أصبحت اهتماماته تافهة، وطموحاته سطحية، فمعظم الشباب أمله في الحياة أن يكون لاعب كرة، أو ممثّلًا، أو مطربًا، وأكبر دليل على ذلك ستار أكاديمي التي فاق تصويت الشباب فيها التصويت في الانتخابات البرلمانية.

وبمناسبة الانتخابات البرلمانية، والرئاسية، والأمور الخاصة بالسياسة، هناك ضعف عام في الوعي السياسي لدى الشباب نتيجة تهميشه، وتعمد إبعاده عن المشاركة السياسية الفعالة.

أيضًا غياب القدوة عند الشباب جعلهم يبحثون في عالم الضياع الذي يعيشون فيه عن بديل لها، فلم يجدوا أمامهم على الساحة سوى الفنانين، والمطربين، ولاعبي الكرة، والدعاة المغالين، لذا صار لا يشغل فكره سوى المطربة الفلانية انتهت من ألبومها الجديد، والمطرب العلاني ألبومه كسّر الدنيا، واللاعب اسمه إيه بِيعَ للنادي الفلاني بكام مليون

جنيه، أو بكام ألف جنيه كما يُبَاع العبيد في سوق النخاسة، والشيخ الفلاني قال، والشيخ العلاني لم يَقُل.

وفي ظل هذه الهوجة، لم يعد الشباب يفكر في شيء يفيده، أو يعود عليه وعلى البلد بالنفع، إنما كل ما يشغله الثقافة الجنسية، ولا شيء غير ذلك، فقد استحوزت هذه الثقافة على مساحة كبيرة من تفكيره، فمع بداية الاستحواذ لجأ للصور العريانة في فترة الانفتاح، ثم انتشر الفيديو في التسعينيات، وبدأت وصلات نص الليل، وبعد ذلك ومع اقتراب الألفية الجديدة غطى الدش أسطح المنازل، وعرف ما يسمى في قاموس الثقافة الجنسية بالقنوات غير المشفرة، والأُوربِّي، وأخيرًا أصبحت الأمور أسهل مما يمكن، وكل شيء أصبح متاح يا عبد الفتاح، وابقى احكِ لي عن الانفتاح في النت، والشات، وحوارات الليل وآخره.

ما الذي حدث للشباب.. هل نوع من تسييح الدماغ، ووضع طبق كنافة بالطرشي مكانه كما يقول اللمبي، أم هي حالة من الغيبوبة، والضياع.

وفي حالة الضياع هذه يعيش الشباب بين تياري الإفراط، والتفريط؛ فأينما تولي وجهك في الجامعة، في الشارع، وخصوصًا وَسْط البلد، في الفضائيات، وخصوصًا شباب ستار أكاديمي، ولعبة الحياة، وروتانا، وميلودي، والناس، والرحمة، أينما تولي وجهك، وعينيك تجد تناقضًا لافتًا للنظر بين الشباب، حيث تجد شبابًا يرتدي جلبابًا أبيضَ مرفوعًا إلى منتصف الساق، وتلمع أعلاه لحية طويلة، وعلى الرأس طاقية شبيكة، وتجد في المقابل شباب الهيبز بالبنطلون الجينز المقلم والـ"تي شيرت" المجسم، والعضلات التي تنفر من هذا التي شيرت، والسلسلة المعلقة في الصدر، أو الرسغ، والعينين الزائغتين كمسَّاحات السيارة، والـمُزَّة بلُغَة الصِيِّع.

فلا تدري أين نعيش بالضبط، في عصر الصحابة والتابعين -ويا ليت هذا يتحقق بشكل معتدل- أم في عصر الأمركة، والأوربة (من أوربا) ويا ليت هذا يتحقق في موضعه الصحيح.

كل ما سبق يؤكد أن الجيل الحالي من الشباب غير صالح للاستهلاك، حيث إن تركيبته أصابها العَطَبُ؛ لخلوها من المواد الحافظة

التي تحفظه من التهوية العالمية؛ لذا أوجه رسالة إلى كل من يهمه الأمر، أقول فيها كلمتين فقط، وهما: العيال تاهت..

ضربـة معلـم

«أنـا لـو كنت بـاعلّم كلاب كان زماني بقيت مليونير، بس أنـا بتـاع بني آدمين»

« نجيب الريحاني في غزل البنات»

أشهد أن العبد لله، ومن في سنه وعلى شاكلته كنا من ضحايا وزارة التربية والتعليم التي دهست، وهرست الجميع بطريقتها وأسلوبها في التعليم.. ولو كان لي دعوة تستجاب في الحال لادخرتها لتلك الوزارة المفترية التي جنت عليَّ، وعلى غيري من الولايا المصريين، فقد كانت تتعامل معنا على أننا مثل برميل الجاز، حيث تظل طوال العام تملأ هذا البرميل، وتحشوه بمعلومة من الشرق على معلومة من الغرب حتى يمتلأ البرميل أو يكاد، ثم تطلب منا أن نكب ما فيه على ورقة الإجابة في الامتحان، وإذا فشلنا في ذلك فإنها تكب علينا برميل الجاز هذا، وبولاعة صينية تولع فينا غير آسفة علينا..

وقد يتهمني البعض -أنا وجيلي- بنكران الجميل، ونسيان الوجبة الغذائية المدرسية التي كانت في الغالب تسبب المغص، ووجع البطن.. لذا، أحب أن أقول لهؤلاء إنني وغيري ممن لسعته العصا، والخرزانة لسنا كالقطط التي تأكل وتنكر، حاشا وماشا أن نكون كذلك..

لذا، أحب أن أقول لهؤلاء إنني وغيري ممن لسعته العصا، والخزانة لسنا كالقطط التي تأكل وتنكر، حاشا وماشا أن نكون كذلك..

وأقول لهم - أيضًا - إنه إذا كان "التعليم ضرورة كالماء والهواء".. فإن كل ضرورة تقدر بقدرها كما يقول الفقهاء.. والضرورة هنا (التعليم) أم الضرورات كلها، لذا يجب تعظيمها، وبذل الجهد لآخر نفَس في سبيل تطويرها، وتحسينها، وتصفيتها لآخر قطرة حتى نعود لمصر التي كان يقال عنها زمان "بلد بتاع شهادات صحيح"..

واللافت للنظر أننا كمصريين نتعلم الشعارات نظريًّا، فإذا نزلنا أرض الواقع، أو حتى أرض اللوا فلا نجد تطبيقًا لهذه الشعارات، وكأنها تتبخر في الهواء كغاز الميثان.. فشعار "التعليم ضرورة كالماء والهواء" - مثلًا - كان مجرد كلام يكتب على لوحة معلقة في المدرسة، وعلى غلاف الكتاب المدرسي الذي أصبح غير مدرسي؛ ليؤكدوا لنا أن كل مرحلة هدفها "التعليم ضرورة كالماء والهواء".. لكن اتضح أننا في تعليمنا - مثل كل المصريين - نشرب ماءً ملوثًا، ونستنشق هواء مسممًا.. وليس في هذا الأمر - كما قلت - مزايدة وتحامل؛ لأن التعليم هدفه الأساسي الارتقاء بالفرد أولًا ثم المجتمع ثانيًا.. ومع ذلك فإن

هـذا الهـدف لم يتحقـق بعـد فـلا الفـرد ارتقـى، ولا المجتمـع كـذلك!! والسبب واضح للجميع وهـو غيـاب الـسياسة التعليمية الثابتـة طويلـة الـنفَس.. وتآكـل الهيكـل التعليمـي الحـالي بعـد سريـان البارومـا فيـه.. والمحصلة النهائية إفلاس عام في النظام التعليمي كله..

وليس أدل على ذلك الإفلاس من قيام وزارة التربية والتعليم مـن وقت لآخر بتغييرات شكلية في المنظومة التعليمية لا تمس جوهر النظام التعليمي.. فكل موسم تفاجئنا بتشكيل جديد للعملية التعليمية؛ ظنًّا منهـا أن تلـك العمليـة تـشبه العمليـة الجراحيـة الخطـيرة التـي يتوقـف نجاحها على عدد الأطباء أعضاء الفريق الطبي الذي يجري هذه العملية دون النظر إلى كفاءة هؤلاء الأطبـاء، ومهـاراتهم في استخدام المشارط، والأدوات الجراحية..

ويبدو أن هذه الوزارة تعلمت هذا الأسـلوب مـن نـادي الزمالـك الذي يفـاجئ جماهيره كـل موسـم بمـدرب جديـد، وتـشكيل جديـد في صفوفه يؤهله لخـوض منافسات الـدوري العـام، ورغـم ذلـك يـصاب بالخيبة، والوكسة، ويتجرع كأس الهزيمة في كل مباراة.. فعلى نفس هـذا المنوال الزملكاوي سارت هذه الوزارة الزملكاوية، فمرة ترتاح لتشكيل

٥ - ٣ - ٣، (٥ سنوات للمرحلة الابتدائية، و٣ سنوات للمرحلة الإعدادية، و٣ سنوات للمرحلة الثانوية).. وتطبقه مدة من الزمان، وتوقن بأنه كفيل بإسعاف الخدوش، والكدمات التي أصابت الهيكل التعليمي، مع أن هذا التشكيل في الحقيقة مجرد عكّاز لرجل عجوز مكركب لو خطفه ولد شقي من يده، فلن يبيت هذا العجوز إلا في قبره..

ومرة أخرى عندما تكثر الانتقادات، وتصرخ الأقلام على صفحات الجرائد بضرورة إدخال إصلاح جوهري على المنظومة التعليمية التي باتت عاجزة عن مواكبة النظم التعليمية الجديدة، فإن الوزارة تقوم قومة رجل واحد للرد على هذه الانتقادات.. وتطبيقًا للمثل الإنجليزي الذي يقول الأعمال أعلى صوتًا من الأقوال - تفشّ غلّها في التشكيل مرة ثانية وتجعله ٦-٣-٣، وتظن - وإن بعض الظن إثم - أن مجرد تغيير التشكيلة كفيل بإنجاح العملية التعليمية، وإخراج جيل متربٍّ ومتعلم.. فكانت النتيجة فشل العملية، وولادة جيل مشوّه علميًّا، معظمه غير قادر على الابتكار، والإبداع.. ومع ذلك تظل الوزارة تمارس لعبة تغيير التشكيل التي أصبحت من هواياتها المفضلة..

فتعود مرة ثالثة إلى التشكيل الأول (٥-٣-٣) بعد أن ثبت أن التشكيل الثاني لا يحقق المطلوب، ومرة رابعة تحن لأيام زمان فترجع التشكيل الأول (٦-٣-٣)؛ وعندما أصابها ملل وزهق من التشكيلين اخترعت تشكيلًا جديدًا من نوعه أظن أنها ستطبقه يومًا ما، وهو ٥ -٤-٣.. أي المرحلة الابتدائية خمس سنوات، والإعدادية أربع سنوات، والثانوية ثلاث سنوات.. ولكل شيخ طريقة، وهذه الوزارة - في نظري - مشيخة بكاملها!

وبناء على ما سبق، لا أكون مدَّعيًا، ولا متجنيًا ،ولا مزايدًا، ولا متحاملًا إذا قلت إن النظام التعليمي في مصر قد أصيب بالروماتيزم الذي تطوّر إلى حالة من الشلل النصفي عافاني وعافاكم الله.. لذا هو بحاجة إلى الرعاية المركّزة، وإجراء عملية إنعاش له حتى نصل بهذا النظام التعليمي إلى هيكلة جديدة غير مستوردة، ولا تكون خاضعة للحكومة المركزية..

وبعيدًا عن معايير الجودة التعليمية الوزارية - ثبت أن العملية التعليمية الناجحة تقوم على منهج متميز، ومدرس كفء، ومدرسة

فعّالة، فكل واحد من هذه الأمور الثلاثة يمثل ضلعًا لمثلث متساوي الأضلاع..

وإذا نظرنا إلى الضلع الأول وهو المناهج التعليمية فسنجد أنه انكسر من زمان، ولذلك تقوم الوزارة من آن لآخر بلحمه، وترقيعه وتجبيسه ليكون ملائمًا لروح العصر، ومع ذلك فإن هذه المناهج رغم عمليات الإضافة، والحذف، والقص واللزق تظل عقيمة، ومتحجرة، وغير صالحة للاستهلاك، حيث إن ٩٠٪ منها حفظ و١٠٪ فقط فهم على عكس المناهج في أميركا، ودول العالم المتقدّم.. كما أن هذه المناهج لا تلبّي احتياجات السوق المحلّية من الفنيين، والحرفيين، وتقوم متعمِّدة مع سابق الإصرار والترصد بإعدام التفكير، والإبداع، وقتل الذكاء عند الأطفال، والتركيز على دور الحضارة الغربية في مسلسل التقدم الإنساني، هذا بالإضافة إلى الترويج للقيم الغربية على حساب القيم الدينية، ولا يتوقف الأمر عند حد الترويج فقط، بل يتطور هذا الترويج إلى أمركة القيم والتقاليد الإسلامية، وإعادة هيكلتها من جديد على نحو أميركي، بحيث يصبح الهيكل أميركيًّا وما بداخله إسلاميًّا، وبذلك نكون كصينية الكنافة المحشية بالطرشي كما يقول سيدنا

اللمبي.. وبعد كل هذا، نظل نقنع أنفسنا بأن الطلاب هم حلم بلدنا كلنا، وغدها المشرق، مع أن البارو ما قد سرت في جذور هذا الجيل المسبهلّ، والمبهور بالحضارة الغربية، والجاني هو المناهج التعليمية!!

والمفاجأة التي لا يتوقعها كل من انطحن، واندعك في العملية التعليمية من المدرسين، والمدرّسات، والمديرين والمديرات، فضلًا عن الطلاب والطالبات، بل لم أتوقعها أنا الآخر ووقعت عليَّ كالصاعقة، ولولا الأقدار ما وقع فوقي شيء من هذا القبيل.. المفاجأة أن معظم هذه المناهج يضعها أناس لا علاقة لهم بالتربية، ولا التعليم.. ولا أمسك أحد منهم مشرطًا في العملية التعليمية، فقد اتضح - بفضل فكرة اللامركزية التي تسعى الوزارة إلى تطبيقها - أن هناك مسابقة تطرح بين دور النشر لاختيار أحسن كتاب وزاري يحقق المعايير التي وضعتها الوزارة، وتلتزم بها دور النشر.. وإذا ضحكت الأقدار لدار نشر معينة فإن الوزارة تتعاقد معها على طبع هذا الكتاب، وتقوم بتقريره على الطلاب في المدارس.. أي إن ما يتم بين الوزارة، ودار النشر مجرد سبوبة، وأكل عيش، بغض النظر عن الجريمة التي ترتكب في حق التعليم..

وإنني أعترف بأني كنت مغفّلًا، وأعتقد أن كل من يقرأ هذا الكلام سيعترف بذلك على نفسه، فلقد كنت أحسب أنا ومن عنده ذرّة من المفهومية أن هناك لجنة متخصصة من أساتذة التربية، ومتخصصي وضع المناهج هي القائمة على هذا الأمر.. لكن اتضح أننا كنا مخدوعين.. وأنا أتحمّل - وأظن أنكم تتحملون مثلي – جرائم التلاعب، والاحتكار التي نالت قطاعات كثيرة في البلد، ولكني - ولكنكم أيضًا – لا أتحمل الجرائم التي تُرتكب في حق أجيال بكاملها نتيجة فساد المنظومة التعليمية، وعجز هذه المناهج التي تفرز لنا في الغالب عقولًا عاجزة عن التفكير والإبداع..

وبناء على ما سبق وبعد ذهاب حالة الخضَّة -التي سببتها المفاجأة- نستطيع تفسير الجناية التي ترتكبها هذه المناهج.. ولو كان الأمر بيدي لحكمت على مرتكبي هذه الجناية بالإعدام رميًا بالطماطم!

والسبب في تغليظ هذه العقوبة أن هذه المناهج تتغير بقرارات غير مدروسة لنشر فلسفة معيّنة.. فمن الملاحظ أن هذه المناهج يتم تغييرها، وتعديلها تبعًا للمرحلة التاريخية التي تمرّ بها البلد، فإذا كانت المرحلة تتطلب تغيير المناهج لتوجيه الجيل كلّه لاعتناق فكر معين، فإن فقهاء

الوزارة يبادرون -فور تلقّيهم الإشارة- بتغييرها، والعجيب أن مصر هي البلد الوحيد التي يفعل فيها هذا الأمر، فهل يُصدِّق أحد أن مناهج التعليم تغيّرت -وليس تطورت- ٩ مرات على مدى ٢٢ سنة؟!!

وقبل ذلك تغيَّرت في عهد عبد الناصر لترسيخ فكرة الاشتراكية، وأن الإسلام دين الاشتراكية، ثم تغيّرت -أيضًا- في الستينيَّات لمواجهة جماعة الإخوان المسلمين (المحظورة)، ثم جاء عهد السادات فوجّهوها، وغيّروها من أجل الحرب على إسرائيل، وفي السبعينيات وبعد الانتصار على إسرائيل قاموا بتعديلها ليواجهوا بها الشيوعيين، ويشجعوا بها السلام مع إسرائيل.. ومع انطلاق عصر الانفتاح تم تغييرها مرّة أخرى لتهيئة الأجواء للفكر الرأسمالي، والدعوة إلى الإسلام دين الرأسمالية.. وهكذا تستمر اللعبة، والضحية في كل هذا هم الطلبة الغلابة، كان الله في عونهم.

ومن أراد التأكّد من عقم المناهج التعليمية، وتضارب المعلومات بها، حتى يقف على كمّ الأخطاء التي يضطر الطالب إلى كتابتها بخطئها في الامتحان من أراد التأكّد من ذلك فهذه عيّنة عشوائيّة رصدْتُها من بعض المواد المقرَّرة على طلاب المرحلة الإعدادية، والثانوية، فمثلًا جاء

في مادة اللغة العربية للصف الثالث الثانوي أن الأرقام أصلها عربي، وفي مادة التاريخ في الصف نفسه تقول إن أصلها هندي، فأي المادتين يصدّق الطالب؟!

ومادة التاريخ فيها إغفال للجوانب المشرقة في تاريخنا المصري، فكلها حروب، ومعارك، واحتلال، ونهب لخيرات البلد، وكل هذا يرسّخ في عقلية الطالب الشعور بالقهر والقمع، والعنف، حيث يرى مصر دائمًا بلدًا مقهورة، ونهبًا للمستعمرين بداية من الهكسوس، وانتهاء بالإنجليز..

كذلك اللغة الإنجليزية يظل الطالب يدرسها لمدة ١١ عامًا، ثم يتخرّج، ولا يجيد التحدّث بها.

وفي مادة النحو المقرَّرة على طلاب المعاهد الأزهرية هناك مثال شائع دائمًا تجده أمامك في معظم دروس النحو، وهو (ضرب زيد عمرًا)، فمنذ عصر أبي الأسود الدُؤلي وزيد يضرب عمرًا، وقد تكبر وقاحة زيد فيضرب بكرًا هو الآخر. ويبدو أن زيدًا هذا كان ولدًا شقيًّا وقليل الأدب يلطّش عمرًا هذا في الرايحة والجاية، ولا أحد يزجره، أو

يمنعه، إلا ما كان من أبي عمران بن سعيد الذي اعترض على وقاحة زيد بفنجرية بق فقال:

يقولـــون إن العدل في الناس ظاهـــر

ولم أر شيئًا منه سرًّا ولا جهــــرًا

ولكن رأيت الناس غالب أمرهـــــم

إذا ما جنى زيد أقادوا به عمـــرًا

وبمناسبة ذكر الفعل (ضرب)، أتذكر أنه كان أوَّلَ فعل من اللغة العربية يقرع أذني ونحن نتعلّم مبادئ القراءة والكتابة بالكُتَّاب، وهو المثال المفضّل لمعظم المدرّسين في المدارس، كما أتذكّر أن أحد المعلمين في الكتَّاب غاظه أحد الأولاد من قلّة حفظه فوضعه في الغسّالة الكهربائية، ويبدو أنه كان يريد أن يرجَّه حتى تتحرك ذاكرته، ويتذكر ما حفظه.

هذا بالنسبة للضلع الأوّل من العمليّة التعليمية الناجحة، وهو ضرورة وضع منهج متميّز قادر على إخراج جيل يفكّر بشكلٍ علمي صحيح.

أما الضلع الثاني للعملية التعليمية الناجحة وهو ضرورة توفير المدرّس الكفء، فهذا الضلع -أيضًا- مخلّع، مع أنه أهم أركان التعليم، وبدونه يتزلزل الصرح التعليمي، وتصيبه الشروخ، ولعل هذا ما حدث بالفعل في مصر، مما جعل الوزارة تقوم من حين لآخر بترميم هذه الشروخ عن طريق توجيهات وزارية شكلية لا تغني، ولا تسمن من جوع، وعن طريق عقد دورات تدريبية للمعلمين لرفع كفاءتهم المهنية، وتدريبهم على الأساليب التربوية، وإني أتعجب لماذا لم تؤتِ هذه الدورات -التي يُنفَقُ عليها الملايين- ثمارها إلى الآن، فلا المدرسون أصبحت عندهم الكفاءة المطلوبة، ولا هم يطبّقون الأساليب التربوية التي درسوها، وكانت مجرد حبر على ورق، وأظن أن السبب في ذلك يرجع إلى أنها دورات غير مدفوعة الأجر، ولذلك يحضرها المعلّم بدون نِفس، أو لأنها جزء من البروتين الحكومي الذي انتهت صلاحيّته.

ما علينا من هذه الدورات.. وتعالوا نعترف بأن المدرّسين أكثر فئة مصريّة مدعوكة، ومطحونة في مصر، وقد يعترّض البعض على هذا بأنهم يهيصون في الدروس الخصوصية طوال العام، وأنهم الراعي الرسمي لتنظيف الجيوب في كل أسرة، لذا أقول: لو ارتاح المعلم في

معيشته، وأخذ مقابلًا ماديًّا مجزيًا عن جهده، وتعبه مع الطلاب، لأخرج ما عنده بأقصى طاقة ممكنة، ولقضينا على مافيا الدروس الخصوصية، ولكن سوء وضع المعلمين المادي، وبالتالي العلمي هو السبب الرئيس في ضياع التعليم في مصر.

أما عن الضلع الثالث، وهو المدرسة الفعّالة فحدِّث ولا حرج؛ فقد غاب دور المدرسة في تربية الطالب، واحتوائه، وتنشئته على الاعتماد على النفس والاستقلال في البحث، كما كثرت حالات الغش والتدليس في معظم المدارس، وانتشرت بصورة مخيفة مافيا الدروس الخصوصية نتيجة غياب دور المدرسة، هذا بالإضافة إلى أن معظم المباني المدرسيّة لا تكفي لاستيعاب أعداد الطلاب.

ونعود فنسأل هل هذه الأمور الثلاثة متوافرة في التعليم المصري أم لا؟

أظن -وإن بعض الظن إثم- أنه لا شيء منها موجود في التعليم المصري، لذا نطلق صافرة إنذار، ونرفع كارتًا أحمرَ لكل المسؤولين، لينتبهوا إلى أن التعليم في بلدنا يقف على شفا حفرة من حفر الصرف

الـصحي المنتـشرة في الأحيـاء الـشعبيّة، فإمـا أن يـسعفوه، أو تنغـرس الأجيال الآتية كلّها في الهاوية.

فَ سَ دَ

«جاتكم قرف مليتوا البلد»

«محمد هنيدي في جاءنا البيان التالي»

إذا كان القائد هانيبال قد نذر نفسه لكراهية الرومان، ومحاربتهم ما دام حيًّا، فإني قد نذرت نفسي لكراهية المفسدين، والمرتشين والمغرضين الذين مُلِئت بهم البلد، ومن المؤكد -أيضًا- أن الشرفاء من المصريين عليهم النذر نفسه.. وإني أؤكد أن الكراهية ليست من طبعي، ولا من طبع المصريين أصلًا، ولكن حين يقوم هؤلاء المفسدون بخطف اللقمة من فمك ليكدسوها لأنفسهم، فإنهم أولى بالكراهية من غيرهم..

ومما لا يختلف فيه اثنان -وأنا واحد منهم- أن الفساد وصل إلى الرُّكب، وأن البستان الجميل الذي نعيش فيه، والذي وصفه ابن الكندي في كتابه «فضائل مصر المحروسة» قد امتلأ بالأفاعي، والقطط السمان، وبصراحة وبكل جُرأة: إننا قد زُكِمنا حتى الاختناق من رائحة الفساد التي استشرت في البلد حتى شعرنا كأننا نعيش في صفيحة زبالة

تمتلئ كل يوم بالـربش، ونرى من يضع هذا الربش، ومع ذلـك نـستمتع بالعيش في الصفيحة، فلا نحـن نمـلّ الـصفيحة، ولا الـصفيحة ضـاقت بنا.

إن الفساد في مصر صـار كالموضـة عـلى كـل شـكل ولـون، بـل إنـه يختلف عن الفساد في دول العالم الثالـث، والرابـع بـل والعـاشر لـو كـان فيه.. إنه فساد علني عيني عينك، أو كما يقولون (على عينك يا تـاجر).. جرّب وادخل أية مؤسسة حكومية ستختنق من رائحة الفساد المعشـشة فيها من عشرات السنين، وكل ذلك يؤكد أن مصر تحوّلت إلى وِسية، أو عزبة لذوي النفوذ والجاه والمال.. يبرطعون فيها كيفما شـاءوا، وشـاءت لهـم الموجـة الـسائدة.. بيـنما الـشعب يقـف عـلى أسـوار العزبـة مكتفيًـا بالمشاهدة، والخضّة عندما يقرأ عن المليارات التي نُهبت، أو تم تهريبهـا، أو إهـدارها، وعنـدما يـشاهدونها وهـي تطـير فـوقهم لتعـبر الحـدود، وتستثمر خارج بلدهم.

لقـد أوضـحت التقـارير أن نتـائج الفـساد انعكـست عـلى أوضـاع المصريين، حيث أصبح قطاع كبير مـن أبنـاء الـشعب تحـت خـط الفقـر، وأن عدد العاطلين الذين يبحثـون عـن وظيفـة، أو أيـة فرصـة عمـل قـد

زاد، وأن حالة المجتمع المصري من فقر، وبطالة هي نتيجة متوقعة لانتشار الفساد، وتوغّله في الجهاز الحكومي.

ومن العجيب أن الفساد قديمًا لم يكن أحد يعرف شخوصه، أما الآن فقد تغير الأمر، فقد أصبح اللعب على المكشوف، ولم يعد هناك حاجة لطاقية الإخفاء، أو تكرار المشهد الذي يعكنن فيه توفيق الدقن على عبد المنعم إبراهيم، ويقرفه في الرايحة والجاية حين كان يسأله: العلبة دي فيها إيه؟

وبالمناسبة -وأرجو التنبيه- هناك قيم سيئة زُرعت فينا منذ الصغر تعد بذرة للفساد، فإني أذكر أن مدرس اللغة العربية -وأنا في المرحلة الابتدائية- عندما كان يعلمنا حروف الهجاء لم يكن يتذكر من أفعال العربية التي تفوق العد والحصر سوى الفعل (فسد)، فكان كلما أعطى مثالًا لحرف الفاء لا يكون على طرف لسانه، أو طباشيره سوى هذا الفعل..

لكن يظل السؤال الذي يحيرني كثيرًا، وهو: هل الفساد هو هو مثلما كان في الماضي، أم أنه فساد من نوع آخر يتناسب مع القرن الحادي والعشرين؟

تعالوا نقارن بين الفساد زمان، والفساد اليوم؛ فالفساد زمان قبل الثورة كان متمثِّلًا في الأحزاب والقصر فقط، وبعد الثورة أصبح الفساد حصريًّا على بعض رجال الحكم من العسكريين الذين نزلوا من على خيولهم الحربية، ونطوا على كراسي الشركات العامة، والوظائف المدنية، ونهبوا البلد تحت مُسمَّيات ثورية كثيرة، ولما جاء عهد السادات، وتدشين مرحلة الانفتاح عقب حرب أكتوبر المجيدة أخذ قطاع الفساد يتسع، وينتشر، ويتغلغل، وتحول أسلوبه من استغلال الوظيفة في الإثراء غير المشروع، والرشوة، والعمولات إلى المحسوبية، واستغلال النفوذ، والفلوس، وانتشار الوساطة، وما تبعه من تكدّس الكوسة في قطاع التوظيف، ومن أراد الزيادة فليرجع إلى موسوعة الفساد، ففيها تراجم وافية، ومعلومات كافية عن شلّة الفاسدين في مصر على مدى أكثر من نصف قرن.

وبعد عصر السادات، دخلنا مرحلة جديدة شعارها طهارة اليد الذي ترجم عمليًّا بتقديم بعض قضايا الفساد للقضاء، كقضية الأغذية الفاسدة، وقضية تجار العملة، وفضيحة ما سمي بشركات توظيف الأموال، كل ذلك كنوع من تصفية حسابات الماضي الذي زكمت

رائحته الجميع، أي إن العملية كانت أشبه برش الفنيك للقضاء على هذه الظاهرة، ولفتح صفحة بيضا نقية مع الشعب.

لكن وكما يقولون: «عادت ريما لعادتها القديمة»، فمع مطلع القرن الحادي والعشرين خرج الفساد من سجنه بعد قضاء المدة التي حكم عليه بها، وكشَّر عن أنيابه، وتحول من مجرد ظاهرة طارئة إلى سمة عامة، وجزء أصيل من الرأسمالية المصرية.

ومما يجعل الأقرع يشدّ في شعره أن لدينا في مصر أجهزة رقابية كثيرة تكفي لأن يكون لكل موظف، بل لكل مواطن رقيب يحاسبه إذا أخطأ، أو تجاوز، ومع كثرة هذه الأجهزة الرقابية نجد أن الفساد ساد، وبعد أن كان المبدعون فيه هم صغار موظفي الدولة، دخل معهم الكبار آخرون كبار، وأصبح الجميع في الهوا سوا.

وأكبر دليل على ذلك، ودعونا نتحدث بلغة الأرقام، وطرطقوا لي ودانكم، واسمعوا هذه الأخبار، وإياكم أن تلوِّنُوا أي خبر منها بلون غير اللون الذي ترونه عندما تغمضون أعينكم:

في عام ١٩٩٩، بلغ عدد قضايا الفساد الإداري حوالي ٦٦ ألفًا و٤٢٢ قضية فساد إداري، وفي عام ٢٠٠٠، ٦٣٣٦٩ قضية، وفي عام ٢٠٠٢، ٣٦٣٩٦ قضية، وهذا ما استطاعت أن ترصده الأجهزة الرقمية (ويا عيني على الصبر!!).

كما تم رصد ٧٥ ألف قضية فساد خلال عامي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧، وشهد عام ٢٠٠٦ عرض أكثر من ٧٣ ألف قضية فساد داخل الجهاز الحكومي بمعدل قضية كل دقيقتين بعد أن كانت قضية كل ٧ دقائق منذ سنوات قليلة طبقًا لتصريح رئيس هيئة الرقابة الإدارية، وقد ألحقت هذه القضايا خسائر بالاقتصاد الوطني تصل إلى مليارات الجنيهات سنويًّا.

وقد ترتب على كل هذا احتلال مصر للمركز ١١٥ في قائمة الفساد العالمي، وفق تقرير منظمة الشفافية الدولية عن عام ٢٠٠٨، في حين كانت قد جاءت في المرتبة ١٠٥ في تقرير ٢٠٠٧، والمركز ٧٢ في تقرير ٢٠٠٦، والمركز رقم ٧٧ في تقرير ٢٠٠٥، ومازال الحصاد مستمرًّا..

على كل حال، إني أؤكد أن كل المفسدين المتربّحين سيكنسهم التاريخ في ترابه، ويلقي بهم في عربات الهيئة العامة للنظافة والتجميل.

(آسف فهذه الهيئة قد تخصخصت، لذا فلن يكلف التاريخ نفسه ويدفع فاتورة النظافة).



دي نقرة ودي نقرة

هل يصدق أحد أن مصر التي حصل شعبها على المركز الأول كأكثر شعب متديّن على مستوى العالم بنسبة ١٠٠٪، قد حصلت في الوقت نفسه على المركز الأول من بين الدول التي ينتشر فيها الفساد، فالأولى ليست غريبة؛ لأن الشعب المصري شعب متدين بطبعه، لكن الثانية من أين جاءت!

وأنا من جهتي لو كنت هذا الأحد، وقيل لي إن الشعب المصري أكثر الشعوب تديُّنًا على مستوى العالم، فإني سأكون على يقين بأن هذا الشعب سيكون جزاؤه الفردوس الأعلى مع النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقًا..ولكن (**ولكن هنا اعتبرها الحد الفاصل بين الجنة والنار**) الإحصائيات لا تساوي شيئًا في ميزان الآخرة، فللآخرة حسابات أخرى، وموازينَ حسّاسة لا تحابي أحدًا، حتى لو كانوا المصريين.

وبداية لا بد أن أخبركم بالظروف التي كتبت فيها هذا المقال؛ لصلتها بموضوعه، فعندما فكّرت في كتابة هذا المقال، كنت راكبًا

الميكروباص، وكعادتي رميت أذني كالهلب لتلتقط أطراف المناقشات التي تدور بين الركاب، والتي يتناولون فيها مشاكل البلد، وهمومهم ومستقبل الكرة في مصر، وفي أغلب الأحيان تختلط الموجات الصوتية التي تتساقط على أذني بكوكتيل غير متجانس من أغاني الـ**D.G**، وأصوات قُرّاء القرآن الكريم، والاثنان يصدران من الكاسيت الموجود بالسّيّارة، أو موبايل أحد الركّاب، وغالبًا يكون شابًّا من الشباب الروش، وغالبًا ما تكون الأغنية شعبية.

والسؤال الذي يقفز إلى الذهن عندما يُصَبُّ هذا الخليط في الأذن، عن هذا التناقض الغريب في سلوك المصريين، فهذه مجرد ظاهرة واحدة من ظواهرَ كثيرة تملأ المجتمع المصري، وتبيّن مدى التناقض السلوكي لدي المصريين.

إن مصر بلد غريبة، وعجيبة حقًّا، إنها بلد المتناقضات؛ **ففي مصر فقط** تجد الحاج فلان يسبِّح على مسبحة، ويصلي فروضه بينما يقبل الرشوة، ويأكل حقوق الناس! تطبيقًا لنظرية: «افعل ما شئت، ثم احجز مكانك في الجنة».

في مصر فقط، تجد الممثل الفلاني، علامة الصلاة كختم النسر فوق جبهته، ومع ذلك يسجد بها على صدر الفنانة الفلانية في الفيلم الفلاني.

في مصر فقط، الحرامي لا يتورّع أن يبدأ عمله قائلًا: «بسم الله»، والراقصة: تسأل الله الستر، قبل أن تؤدّي نمرتها.

في مصر فقط، يتم توظيف الآيات القرآنية لترويج سلعة، أو خدمة معيّنة، فالمصريون وحدهم يجيدون توظيف الآيات القرآنية في المواقف المختلفة، فمثلًا: الفكهاني يعلّق على واجهة محلّه قوله تعالى: «وفاكهة وأبًّا»، والترزي يعلّق قوله تعالى: «وكل شيء فصّلناه تفصيلًا»، والحانوتي يعلق: «كل من عليها فان»، ومحلات العصير تعلق الآية القرآنية: «وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا»، والفرارجية يعلقون قوله تعالى: «ولحم طير مما يشتهون». والجزارون يعلقون قوله تعالى: «ومن كل تأكلون لحمًا طريًّا».

وفي أغلب المصالح الحكومية تجد قوله تعالى: «وَقُلِ اعمَلُوا فَسَيَرى الله عَمَلَكُم وَرَسُولُه والمؤمِنُونَ»، معلّقًا على الحائط، والغريب أنه ربما يكون الموظف الذي يجلس على المكتب رايح في تعسيلة.

وفي المستشفيات يعلّقون قوله تعالى: «وإذا مرضت فهو يشفين..» وبعض الأطباء الفاشلين يعلّقون أخطاءهم المهنية التي تُودِي بحياة مرضاهم على هذه الشمّاعة.

وهذا إن دلّ فإنه يدل على أن الدين أصبح مجرّد سلعة يتاجر بها البعض، ويستغلّها البعض الآخر في الضغط على مشاعر الناس الدينية، والترويج لفكر معين يقتنع به هو.

وهناك بعض الدعاة فهموا اللعبة، وأصولها، وتحول الدين على أيديهم إلى بيزنس، فمنذ أن انطلقت الفضائيات، وهؤلاء ما صدقوا أن وجدوا منفذًا يطلّون منه، ويظهر الواحد منهم في أكثر من برنامج، وأحيانًا يفتكس برنامجًا جديدًا من كلمة في حديث، أو آية قرآنية ذكرها في برنامجه الأصلي، والعجيب أن هؤلاء كانوا يحرمون مشاهدة التلفزيون قبل سنوات من خلال أشرطتهم التي تفرش الأرصفة الملاصقة للمساجد، ورغم ذلك كانوا أول من ظهروا في الفضائيات.

والمتابع لمعظم هذه البرامج يجد أن غالبيتها يناقش موضوعات منفصلة عن الواقع تمامًا، ولا تناقش مشكلات الناس، وهمومهم، وما يشعرون به يوميًّا من معاناة، وبؤس، ويأس من الحياة، بل إن الوجبة

الدسمة، والمفضلة التي تقدم للمشاهد في هذه البرامج تكون خليطًا من الحديث عن أحداث النهاية، وأشراط الساعة، ونعيم القبر، ومكائد الشيطان، وهي الموضوعات المفضلة لدي المصريين على وجه الخصوص، حيث تسجل مشاهدة هذه النوعية من البرامج أعلى نسبة عن غيرها من البرامج، وقد أدّى هذا إلى اختزال الدين في هذه الأمور فقط، بعيدًا عن معاملات الناس، والعلاقة بين بعضهم البعض، كأن هذه البرامج بهذا فقط ستجعل الناس تحب الآخرة، وتخاصم الدنيا، مع أن مقدمي هذه البرامج علاقتهم بالدنيا سمنة على عسل، والدنيا فتحت عليهم أبوابها -اللهم لا حسد- وربنا يحفظهم من الدنيا، وبلاويها، ومن الحسد وناسه.

(أكيد أنا دلوقتي في عرفهم مارق محارب للدين منكر للغيبيات، ويشهد الله أني من هذا بريء)

ومن هذه الفئة شيوخ يحرّمون علينا عيشتنا، ويضخمون أخطاءنا، ويصورون أفعالنا كلها ذنوبًا، وكبائر، ويبرزون الواقع كأننا نعيش في قبيلة قريش، ويخاطبوننا بلغة فظّة غليظة، ولا غرابة في ذلك فمعظمهم ظاهرة صوتية.

أرجع وأقول العيب ليس عيبهم، إنما عيب من يريد أن يروِّج مثل هذه الموضوعات ليخدر إحساس المصريين، ويغيبهم عما يدور حولهم ويتسبب في كل ما يشعرون به من معاناة وألم، ويشارك في هذا بعضُ الدعاة الذين لم يحتكّوا بالمصريين، ويلمسوا عن قرب مدى معاناتهم، فمعظمهم يركب السيّارات الفارهة -اللهم لا حسد- ومتزوّج بأربع، وعنده أولاد بالدستة، وربنا يبارك له فيهم.

فهؤلاء يقومون بدورهم في شَغْل الناس بقضايا جزئية خلافية تقبل الرأي، والرأي الآخر، ويضخّمون في آرائهم، وضرب آراء غيرهم في طول الحائط، لماذا لا يحاربون الظواهر الاجتماعية السلبية التي شاعت بين المصريين، كالرشوة التي أصبحت اللغة السائدة في التعامل بين موظف الحكومة، والمواطن، لماذا لا يقدمون مشاريع خيريّة تتكفّل بزواج الشباب، بل إن أحدهم قال في حلقة موجِّهًا حديثه للشباب العازب بأن يصبر إن لم يتزوّج، فسوف يتزوج الحور العين في الجنة!

لقد أصبحت هناك صورة شائعة للمتدين الذي يعرف ربنا، حيث ترسخ في أذهان المصريين البسطاء أنه فقط الشخص الذي يرتدي الجلابية البيضاء، ولحيته كالمقشة، وعلامة الصلاة كالختم على جبهته،

بغض النظر عن سلوكه مع الناس، وأخطائه في تعاملاته اليومية، وهذه الصورة الشهيرة رسّخها، وغرسها الإعلام، في مسلسلاته، وأفلامه، وبرامجه الدينية، وغير الدينية، وقد أدّى هذا إلى شيوع ظاهرة التديّن الظاهري الذي يهتم بالمظهر على حساب الجوهر، وهو ما يفسر الكرنفالات التي تنتشر في الشوارع، وفي الجامعات، حيث تجد الملابس على كل شكل ولون، فتجد النقاب، والحجاب، والطرحة، والعارية الشعر، والمحزّق والملزّق، والفضفاض، كما أصبح لدينا في مصر قطاع عريض من الناس يؤدون فرائض الدين بإخلاص، لكن في معاملاتهم اليومية تجدهم أبعد ما يكون عن الدين.

لدينا عشرات القنوات الفضائية الدينية التي لا تتوقف عن الحديث في الدين ليل نهار، ورغم ذلك لم تسهم هذه القنوات في تصحيح فهمنا للدين، بل أصبح المسلمون بفضل هذه القنوات إلى طالبي فتاوى في أمور واهية، ويطرحون أسئلة عن كل شيء حلال هو أو حرام.

يبقى أنت أكيد أكيد في مصر

يقول الشاعر الإنجليزي رديارد كبلنج: «أنت لم تر إنجلترا إذا كنت لم تر من البلاد سوى إنجلترا»، وبصراحة أنا أؤيد هذا الشاعر في كل كلمة قالها مع أني لم أر إنجلترا، ولا غيرها إلا على الخريطة..

وبأنه لا أحد أحسن من أحد.. لذا أستطيع أن أقول مثل هذا الشاعر المتفلسف، وبنفس النغمة: أنت لم تر مصر إذا كنت لم تر من البلاد سوى مصر..

والذي أقصده -أنا وهذا الشاعر- أنك لا تستطيع أن ترى بلدك على حقيقتها إلا إذا زرت غيرها، وقارنتها بالبلاد الأخرى، أما إذا عشت ومت، ولم تر سوى مصر التي تحدثت عن نفسها على لسان المسؤولين، وجاء وصفها في صفحات الجرائد القومية.. فسامحني إذا قلت لك: أنت لم تر مصر الحقيقية..

ولأني أشعر أن هذا الجيل الذي اشتكى الـچل من شعره قد تاه عن بلده، فسأحاول جاهدًا أن أصف لهم الطريق إليها..

- لما تلاقي أمامك كل يوم وجوهًا ثابتة لا تتغيّر كقوانين الجاذبية يبقى أنت أكيد أكيد في مصر.
- لما تلاقي سيدة في محطة المترو، وفي إشارات المرور وعلى أبواب المحاكم، وفي يدها اليمنى المناديل الهاندي، وفي اليسرى طفل رضيع يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي العنب، والبلح، والخيار يتغنى بهم دون بقية الفواكه والخضراوات الأخرى يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي حريقة في كل مكان مهم في البلد بين الحين، والآخر يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تقلب قنوات التلفزيون فلا تجد أمامك سوى الفنانين، والفنانات، ولاعبي الكرة يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي طلبة الجامعة خارج المدرجات جالسين في الكافيتريات صبيان مع بنات، ويلعبون في الموبايلات، أو في (بقهم) الشيشات يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..

- لما تلاقي علب السجائر مكتوب عليها "التدخين ضار جدًّا بالصحة" مع أنها تباع في كل مكان يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي حزبًا واحدًا هو المسيطر على الساحة السياسية يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي كل من هب ودب في أي ميدان من الميادين المهمة يستوقفك ويقول لك: بطاقتك.. يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي صفحة الحوادث (إذا تصادف وقمت بشراء الجرنال) لا تخلو من كلمات مثل (اغتصاب – سرقة – قتل – تزوير – استيلاء) يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي إشارة المرور تظل حمرا لمدة ساعة وأكثر لمجرد مرور مسؤول أمه دعت له، وقالت له روح ربنا يوقف لك ولاد الحلال.. يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي بعض نواب الشعب نايمين، أو على كرسي فاضي متخانقين أو "يقزقزوا" لب يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..

- لما تلاقي رجل أعمال يمتلك شركات، ومصانع ووو... وهلم جرا.. وفي الوقت نفسه يحمل حقيبة من الحقائب الوزارية المتصلة بمجال عمله يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي طابع بريد، ومكتب يتحكم في مصير الطلبة، ومستقبلهم يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي طابورًا، أو طابورين على الأقل في كل مصلحة حكومية، أو أمام فرن، أو عربة فول يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي الستات في وسائل المواصلات، أو في المصالح الحكومية، وغير الحكومية ضِعف الرجالة يبقى أنت أكيد أكيد في مصر.
- لما تلاقي الشعب كله متكربس في شريط ضيق من المساحة الخضراء، وسايب باقي البلد فاضي يبقى أنت أكيد أكيد في مصر...
- لما تلاقي الحمار هو الحيوان الوحيد الذي يُغنَّى له دون سائر الحيوانات يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..

- لما تلاقي شخصًا واحدًا فقط متحكمًا في أهم السلع الأساسية في البلد يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي كل منصب عام كشيخ الأزهر، ورئيس الجامعة، والعمدة يكون بالتعيين لا بالانتخاب يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي ثلاثة أرباع السنة إجازات رسمية، وغير رسمية يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي بعض الموظفين في إجازة لمشاهدة مباراة الأهلي والزمالك، أو المنتخب يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي الجو جهنم، والناس لا تطيق بعضها من الحر ومع ذلك تقول النشرة الجوية إن درجة الحرارة ٣١ درجة مئوية فقط يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي نفسك اتكعبلت، وأنت تجري خلف الأتوبيس، وانطرحت على الأرض حتى أصبح وجهك مثل الكوبري الخشب يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..

- لما تلاقي صفحة الأهرام لا يوجد بها عبارة مثل (وظائف خالية - شقق خالية) يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي قضايا الطلاق في المحاكم أكثر من أية قضايا أخرى يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي «ناس فوق فوق خالص مالص» و «ناس تحت تحت خالص مالص» يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي نفسك تمتلك ثلث آثار العالم، وتمنع من مشاهدتها، والاستمتاع بها يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي البنات تصرخ وتولول بأعلى صوتها: عريس يا مَّاي؟! يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي ازدياد نسبة الوسائد الخالية حتى أصبحت تمثل ظاهرة عامة يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي البطل في أي مسلسل، أو فيلم ينزف دمه، ويكاد يفرفر، والكل ملموم حوله، ولا أحد يطلب له الإسعاف يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..

- لما تلاقي البطل في أي فيلم البنات تتلهف عليه، وتطارده وكأنه عمر بن أبي ربيعة يبقى أنت أكيد أكيد في مصر...
- لما تلاقي في يوم من الأيام إحدى الموظفات ترضع أحد الموظفين في مصلحة من المصالح الحكومية يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي حريقة في مكان ما، وأمامها مباشرة على بعد أمتار المطافي، ومع ذلك تظل الحريقة ساعات دون أن تطفئ يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..
- لما تلاقي نفسك كشّيت فجأة في زنقة الأوتوبيس، وأحسست بغزة في جنبك يبقى أنت أكيد أكيد في مصر..



حكايـة شعـب

«إيه قول تاني كده هو انت بتتكلم عننا»

«نانسي عجرم»

هيَّ حكايــة حرب وتــار.. بينّا وبين الاستعـــمار..

بهذه الكلمات الحماسية انطلقت حنجرة العندليب تحكي قصة شعب أَبَى إلا أن يسترد أرضه من أحضان الاستعمار الذي ظل ما يزيد على سبعين عامًا ينهب خيرات البلد، وثرواتها.. هكذا كان يغني جيل الخمسينيات..

فهل يا تري هذا الجيل انقرض أم ورَّث- (بلاش كلمة ورث دي)- أم انتقلت حماسته إلى جيل القرن الحادي والعشرين؟

ربما..

لكن الثابت والمتحرّك للعيان يؤكّد أن هذه الحكاية أو الحدوتة المصرية التي بهرت العالم كلّه تطورت بمرور الأيام والأعوام حتى أصبحت حكاية حرب وتار بيننا وبين الاستحمار..

- **الاستحمار!**

- **نعم..**
- **الاستحمار..**

من المؤكد أن الكثير سيعترض ويقوم، ويقعد بمجرد سماعه هذه اللفظة، وهذا الكثير الذي سيفعل هذا له العذر، فالمثل يقول: «اللي على راسه بطحة يحسس عليها»، وسامحوني لاستخدامي مثل هذه الأمثال الشعبية التي تجري على ألسنة السوقة، والعوام.

وأيًا ما كان الأمر، فإني وبصفتي رجلًا ديمقراطيًا- فهكذا أصف نفسي دائمًا -أحترم رأي هؤلاء المبطوحين، وأقبل اعتراضهم، وأقدّر شعور الرجولة الذي يطفح داخلهم، لكن -للأسف- واقع الحال في هذا العصر يؤكّد ما أقول، كذلك الصفات التي يتسم بها الحمار، وهي صفات مشتركة بينه وبينهم، كالصبر، والقدرة الخارقة على تحمّل الأسيّة، والسكون، والتكيف، والحميمية، والعشق العذري لصاحبه إلى غير ذلك من صفات أحرز الحمار المصري المرتبة الأولى فيها، مما جعله أفضل أنواع الحمير الموجودة في العالم من حيث المواصفات، وذلك مقارنة بالحمير الهندية، والتايلاندية، والأميركية (تصوروا!) والفيتنامية، والأفغانية!

بل الأغرب من هذا أنني وجدت جذورًا لهذه الظاهرة -ظاهرة الاستحمار- في التراث العربي.. حيث قال الشاعر العربي بعد أن غلب حماره، وفهم القصة من أولها إلى آخرها، قال ملخصًا الحالة التي نعيشها الآن:

تكبّر على العقل لا ترضه .. ومل إلى الجهل ميل هائم

وعش حمارًا تعش سعيدًا ... فالسعد في طالع البهائم

وقد لخص أحدهم معنى هذين البيتين على طريقة الملخّصات المدرسية في ثلاث كلمات، فقال: استحمر تعش أفضل..

بل إنَّ واحدًا من عاشقي الأمثال الشعبية التقط هذين البيتين من فم هذا الشاعر، وصاغ مثلًا شعبيًّا يقول: يا بخت من عاش حمار ومات حمار..

دعك من هذا الشاعر البائس، فمهما قال فهو -في الأول والآخر- رجل قد مات، ولو كان حيًّا يطحن بيننا الآن لقال أعجب من هذا.. ودعك -أيضًا- من الملخصاتي العبيط، وصاحب الأمثال المفوَّه، واسمع -وأكيد سمعت- المطرب الذى غني مستهبلًا: بحبك يا حمار.. مؤكِّدًا لنا صلة القرابة بينه، وبين هذا الحمار الذي يُحبّه! ومؤكِّدًا في

الوقت نفسه حالة الاستحمار التي تسيطر على قطاع كبير جدًّا من الشعب المصري.

فهذا نموذج من نماذج كثيرة في مصر يدل على أن الرَّاحة، والسعادة، والشهرة، والوصول إلى القمة في هذا البلد كلّها أمور ترتبط بمدى ما يتمتع به الشخص من حمورية، وغباء، وتهييس، وتهييص وتهطيل، وتهبيل..

دعك أيضًا من هذا المطرب، وشاهِد -ومن المؤكد أنك شاهدت- فيلم القاهرة ٣٠ الذي يقوم على نظرية ٣ × ١ ونصّها كما كان يردد حمدي أحمد دائمًا: لا أسمع لا أرى لا أتكلم.. ولقد برع المخرج حين ركز الكاميرا على حسن حمدي بحيث أظهرته وهو بين قرني حمار معلقين على الحائط..

ظاهرة الاستحمار هذه التي يشكو منها الجميع، تظهر أعراضها بين الحين والآخر في كل مكان في البلد من شمالها لجنوبها، ومن شرقها لغربها، ومعنى انتشارها بهذه الصورة أنها في الحقيقة عرض طارئ، سيزول بأخذ الكبسولات، والفيتامينات المناسبة، والمُودَعة في أدراج مراكز البحوث المختلفة.

تعالوا نبحث في الأصول، والجذور لنتأكد من ذلك، ولنثبت للجميع أن هذه الظاهرة حالة مرضية طارئة، وهي وإن طالت مدتها فإنها رغم ذلك ستزول بإذن الله..

القصّة، وما فيها أن هذا الشعب حين تبحث في جذوره، وتتّبع تاريخه ستجده يتّصف على مرِّ العصور بالعديد من الصفات الإيجابية التي جعلته مميزًا، وفريدًا بين شعوب العالم، فمن السمات الأصيلة في الشعب المصري: الذكاء، التدين، خفّة الدم والسخرية من الواقع، المسالمة وحب الاستقرار، التسامح، الكرم، الشهامة والمروءة، الطيبة، والصبر على السوء، إلى غير ذلك من مفردات قاموس الطيبين.

ومنذ فجر التاريخ، وحتى العصر الحديث ظلت هذه الصفات جزءًا لا يتجزأ من الشخصية المصرية، وما بين الفجر والعصر شهدت شعوب العالم كلها في كل العصور لهذا الشعب المصري بالعظمة، والتفرّد.

وقد كنت أتفشخر بهذه الشهادة كلّما سمعتها من السيّاح الذين كان مذيع البرنامج إياه يستوقفهم أثناء جولاتهم السياحية، ويسألهم عن أجمل صفة في الشعب المصري.

ومن يومها عرفت أن سرّ عظمة المصري يكمن في هذه الصفات التي جعلت له توليفة خاصة، فمن بين ملايين البشر تستطيع أن تميّز المصري بهذه التوليفة الممتازة، وبالرائحة المميزة التي تكوّنت على مدار سبعة آلاف سنة، والتي بمجرد شمها يسهل عليك التعرف على صاحبها دون أن تحتار وتسأله -كما فعلت بنت عجرم-.

لكن..(وركز معي على "لكن" هذه)..

أيّة توليفة من الممكن أن تتعرض لمناخ يعمل على إحداث تغير فيها، سواء في اللون، أو الطعم، أو الرائحة، مما يفقدها صفة من صفاتها، وتصبح توليفة غير ممتازة بالمرّة.

وهذا ما حدث بالضبط لتوليفة المصري، التي تعرّضت لمناخ استمرّ ما يزيد على خمسين سنة حدثت خلالها تحوّلات جذريّة في شخصيّته، مما يؤكد ظني -وإن بعض الظن إثم- أن الجينات الوراثية للشعب المصري قد تغيرت.. فهناك قيم، ومبادئ ماتت، وحلّت محلها قيم من نوع جديد أفرزها المناخ العام، والظروف التي أحاطت بالمصري منذ أكثر من نصف قرن.

تعالوا نرى هذه التوليفة كيف كانت قديمًا قبل النصف قرن هذا.
زمان كان المصري يثور حين يتعرّض للإهانة بأي شكل من الأشكال، وحين تجرح، أو تتعوَّر كرامته الوطنية.. كان يثور حين تنتهك قدسيّة عقيدته الدينية التي ورثها أبًا عن جد، وجد جد، وجد جد جد اللي خلفوه.. كان يثور حين تهدد لقمة عيشه، أما الآن فالمصري يقبل أن يضرب بالقديمة، ولا أحد يمسّ لقمة عيشه، إن وجدها أصلًا.

زمان كان هناك رد فعل شعبي لكل تقصير من جانب الحكومة تجاه قضية من القضايا، ففي عام ١٩١٤ اشتدت الأزمة الاقتصادية ودخل الفقر كل بيت كالجراد المنتشر، فخرجت مظاهرة للعاطلين رفرفت فوقها أعلام حمراء، ولافتات تقول: «نريد خبزًا، أو عملًا».. وبما أن حكومتنا الموقّرة في الألفيّة الثالثة لا تقدر على توفير الاثنين فانسَ يا عمرو تكرار هذا الأمر.

زمان كانت الضمائر ظاهرة وحيَّة، ولها محل من الإعراب، والقلوب، والتعاملات المختلفة بين الناس، أما الضمائر المستترة الميتة فلم يسمع عنها المصريون إلا في كتب النحو.

زمان أيام خوفو وخوفي، والجدع منكرع، والشاب الحليوة توت عنخ آمون، وغيرهم من الجماعة المتفرعنين أصحاب الحضارة الفرعونية بُنِيَتْ الأهرام، والمسلّات، والمعابد، والتماثيل، مما يؤكد أن المصريين كانوا متفرعنين أكثر من اللازم، ولكن قارن بينهم، وبين الجيل الحالي لترى ماذا بني، لن تجد شيئًا سوي مدينَتِي، والرحاب، ومارينا، ودريم بارك، وسيتي ستارز! ليظل السؤال قائمًا: أين صفة الفرعنة التي فعلت العجائب، ومتي تظهر مرة أخرى؟

والإجابة سهلة: المصري لا يتفرعن إلا في مطشات الكورة، كما أنه لا يتفرعن إلا على نفسه، أما في العمل، والإنتاج، فنصف وزنه تكاسل، وخمول إلا من رحم ربي، وقليل ما هم!

كل هذا شيء جميل، كان فيه منه زمان، لكن خلص خلاص، ونفدت الكمية، والعرض انتهى، وما زال البحث مستمرًّا عن شعب آخر بنفس هذه الصفات ليرتقي بالبلد، ويعود بها إلى سابق عهدها.

نرجع ونقول مرة ثانية إن توليفة المصري عجينة ممزوجة من مكونات كثيرة متباينة، ومتنافرة، ومخلوطة بمقادير محددة، فهذه العجينة خليط من عصور مختلفة، بداية من العصر الفرعوني، ثم القبطي، ثم

الإسلامي، ثم الفاطمي، ثم المملوكي، ثم العثماني، وانتهاء بالعصر الحديث.

وكل عصر قد وضع منه مقدار محدد من الصفات التي تمثّل جزءًا من هذه العجينة العجيبة المتناقضة، وقد دفع هذا التناقض، والتباين موريس هيندوس إلى أن يقول: مصر أرض المتناقضات..

ففي مصر تجد الفقر الدَّكر يتعايش في سلام مع الغنى القاروني.. في مصر تجد الأزهر، والحسين، والسيدة زينب، والكاتدرائية المرقسية، والكنيسة المعلقة.. وفي الوقت نفسه تجد شارع الهرم، ومارينا، وشرم الشيخ.. في مصر تجد السماحة، والتعصب.. الشهامة، والنذالة.. في مصر تجد الممثل الفلاني على جبهته علامة الصلاة كختم النسر، ومع ذلك يظهر في السينما نائمًا مع الممثلة الفلانية في فراش واحد.. في مصر تجد الراقصة الفلانية تهز وسط البلد برقصاتها الملهلبة، وفي الوقت نفسه تقيم موائد الرحمن في شهر رمضان، وتوزع النُّقطة -أقصد الصدقات- على ضيوف المائدة.

وهذا التنوع، والتناقض لا يوجد شعب على ظهر الأرض يتمتع به سوى الشعب المصري، وكما يقول المثل: يا داخل مصر منك ألوف..

وهذا المثل معناه من أبسط ما يكون، فهو يعني أن من يدخل مصر لن يكون وحيد زمانه في صفاته، أو في مهنته، فإذا كان مجرمًا، ففي مصر منه ألوف، والميزة عندنا أن هؤلاء الألوف معروفون للعيان.. وإذا كان مطربًا، ففي مصر منه ألوف صدَّعَنا بعضُهم بأصواتهم النشاز، وأغانيهم الهابطة.. وإذا كان مستبدًّا ففي مصر منه ألوف ملئوا صفحات التاريخ، وإذا كان من مشجعي الكورة ففي مصر منه ملايين، وإذا كان من الفاسدين، فما أكثر هؤلاء في مصر! وإذا كان من الوطنيين، ففي مصر منه الملايين أيضًا، وإذا كان من الحرامية، ففي مصر منه عشرات الألوف يَسْرقون الكحل من العين، وخلي بالك أن كل هذا made in Egypt، فالصناعة مصري، والضمان مدى الحياة.

وقد أجرى باحثون كثيرون دارسات على الشخصية المصرية، ومنهم الدكتور حامد عمار، حيث ذكر في دراسته عن الشخصية المصرية، أنها شخصية فهلوية، وذكر سمات هذه الشخصية فقال:

١- القدرة على التكيّف السريع، والمرونة، والفطنة كصفات ايجابية، والمسايرة، والمجاملة كصفات سلبية.

٢- اللجوء إلى النُّكتة للتنفيس، أو الترويح عن النفس.

٣- المبالغة في تأكيد الذات، والقدرة الفائقة على تجاوز الصعاب.

٤- استنكار السُّلطة في دخيلة النفس، والميل إلى التملّص من المسؤولية.

٥- الميل إلي العمل الفردي، والنفور من العمل الجماعي.

٦- الرغبة في تحقيق الأهداف بأقصر الطرق.

وكل هذه السمات نتيجة حتمية للقهر الذي تعرّض له الشعب المصري على مدار تاريخه، فهو قد تبرمج على هذا، وتعوّد عليه، يقول إداورد لين[1] : «كنت أسير في الشارع فوجدت مصريًّا يأكل على جانب الطريق، فمر مملوكي يمتطي جواده فقام له المصري؛ خوفًا واحترامًا، فإذا بالمملوكي ينهره قائلًا: هل تخافني، وتحترمني أكثر مما تحترم نعمة الله؟! وأمر المملوكيُّ بقطع رأس المصري في الحال».

وقد علّق الدكتور محمد عناني -أستاذ الأدب الإنجليزي- على تلك الصورة، فقال: «هذا من مفاتيح الشخصية المصرية التي لم ترحل

---

[1] وهو إنجليزي جاء إلى مصر سنة ١٨٢١ للاستشفاء بعد أن أصيب بمرض صدري، فجاء لمصر في عهد محمد علي، وكان رسامًا، وأثناء تواجده بمصر قام بعمل مجموعة من الرسومات وعاد بها إلى إنجلترا عام ١٨٢٨ وعرضها على إحدى الجمعيات، التي تكفلت بإعادة إرساله إلى مصر على نفقتها، على أن يقوم بإعداد كتاب عن مصر آنذاك، فألف كتابًا سماه "أخلاق المصريين المحدثين وعاداتهم".

حتى الآن، وهذا السبب وراء شعور المصري الدائم بأنه مظلوم لسبب ما».

وقد فهم حكام مصر على مرِّ العصور هذه الطبيعة المميزة لهذا الشعب، وعرفوا أن حظّهم في السما، فلا يمكن أن يحظى حاكم مهما كان بشعب كهذا، فتعاملوا مع هذا الشعب وفق قاعدة عامة مستخلصة من التجارب، تقول إن الشعب المصري كالسمسم لا بد من سحقه كي يخرج منه الزيت..

وقد توصّلت الدارسات البحثية إلى أن هذا الشعب مهما انسحق، واندعك فلن يبرطم، أو يغضب من ذلك؛ لأن لديه قدرة على التكيف مع الظروف، وهي قدرة عجيبة ليست عند كل الشعوب، حيث تدفعه هذه القدرة إلى قبول الأمر الواقع، والتكيف معه.. والتحلّي بالصبر على الظروف المنيّلة التي تحل بأي شعب، وهذا الصبر يعززه الأمل في تحسن هذه الظروف، كما يقول المثل الشائع على ألسنتهم: (اصبر على جارك السو يا يرحل يا تجيله داهية).

ولذلك سيظل هذا الشعب دائمًا شعبًا مسكينًا طيبًا؛ فكل مرحلة تأتي لتبشر بحياة كريمة له، ويكون شعارها مصلحة المواطن فوق

الجميع، ويؤقلم المواطن نفسه على ذلك؛ يصبح في النهاية هو الضحية، ففي فترة الانفتاح حصل للشعب غسيل مخ بحيث ذابت القيم، والمبادئ القديمة ليحل محلّها قيم أخرى من نوع جديد.. فالسادات - رحمة الله عليه- عندما فتح البلاد على وسعها فيما يسمى بفترة الانفتاح الاقتصادي، كان يقصد الخير للجميع، والدليل على ذلك أن البلْية لعبت في أيدي أناس كثيرين فهموا اللعبة، وسمعوا كلام الريّس عندما قال قولته الشهيرة: اللي مش حيلحق يغتني في عهدي مش هيغتني أبدًا.. فسمعوا الكلام، وعملوا بالنصيحة، ونجحوا بمزيد من الفهلوة، وتفتيح الدماغ في الصعود من القعدة الشعبية التي لا جذر لها تستند إليه وقت الفشخرة بالجذور، والأصول سوى الخميرة التي ناموا عليها، وشخّروا منذ أن فتحها السادات على البحري.. ولقد كان من الطبيعي أن يُصاب الشعب الغلبان بالبرد، ويزكم؛ لأن الانفتاح كان في كل شيء، وعلى كل شيء، ومن فوق، ومن تحت أيضًا، ولزيادة التأكد يرجى مشاهدة أفلام السبعينيات، وأوائل الثمانينيات، والميني جيب، والميكروجيب.. والحصن المنيع الذي نجح السادات في فتحه هو شهية المواطن المصري، لكنه لم يفتحها على طبخة دسمة من بتاع زمان، وإنما

فتح شهيّته للاستهلاك، فأصيب الشعب بشراهة استهلاكية غير معقولة، كما أنه الرئيس الوحيد الذي جعل المواطن المصري يحلم وهو صاحي بعيشة البغددة والهنا التي وعد بها، ورغم ذلك كان للحلم آثار سلبية خطيرة، حيث تولّدت لديه رغبة متوحشة في الثراء السريع دون مجهود يبذل، فأدى هذا إلى اختفاء قيم العمل، والإتقان، وقد ترجم تلك الحالة العبارات المحزنة التي نسمعها دائمًا، مثل: «**أشتغل وأتعب ليه .. كله محصّل بعضه**».. «**خد الفلوس واجري**»..

وتطلّب هذا التحوّل ضرورة إدخال تعديلات على سيستم التعامل، فمثلًا العمولة يسمونها جدعنة، والرشوة هدية، والنصب فهلوة، وتفتيح دماغ.. والسياسة هي اللعب على كافة الحبال.

وفي هذا المناخ البارد، أصبح كل شيء له ثمن، والمهم أن تمتلك ما يجعلك فوق القانون.. فسادت الفوضى، وماتتِ الرقابة، وأفلت الفاسدون، وأصحاب المصالح من المحاسبة، فشجّع هذا المواطنَ المصري على التحايل، والفهلوة، وانتهاز الفرص لتحقيق الكسب السريع، وأصبحت شهوة الاستحواذ على المال، وتكديسه تعشش في عقول المصريين.. وبإلقاء search سريع في قاموس الألفاظ العامية

تجد عبارات كثيرة تدل على مدى نجاح الشعب المصري في استخدام أسلوب الفهلوة، وتفتيح الدماغ لمواكبة هذا العصر المفتوح، حيث انتشرت على ألسنة المصريين عبارات مثل : «**إحنا اللي دهنّا الهوا دوكو**».. «**إحنا اللي خرمنا التعريفة**».. «**إحنا اللي علّمنا النمل يمشي طوابير**».. «**نعمل من الفسيخ شربات**».. «**بنفهمها وهيَّ طايره**».. «**حلنجي**».. «**بتاع التلات ورقات**».. «**حاوي**».. «**أُلعبان**».. «**زي الزيبق**»..

ولقد كان طبيعيًّا أن يصاحب هذه الطموحات، والآمال الفردية العنف، والبلطجة، والعدوان بغير وجه حق، فأصبح شعبًا عصبيًّا زيادة عن اللزوم، ويستثار في أقل وقت ممكن، والدليل على ذلك ما يحدث أمام الكاميرا الخفية لصاحبتها زكية زكريا.

وعلى المستوى الشعبي السياسي أصبح الناس في مصر -كما يقول الأستاذ إبراهيم عيسى- حالة من ثلاثة:

١ - أغلبية صامتة، مغلوبة على أمرها، شعارها إلى الأبد "اللي يتجوّز أمي أقوله يا عمي".. تعودوا الخنوع، والركوع، وأدمنوا العبودية منذ عصر المماليك الأرمن، والشركس الذين حكموهم..

٢- منافقون يشمشمون على المنصب، ويتلهّفون على النفوذ، والتمحّك بالدولة، والقرفصة تحت أقدام النظام، وهؤلاء يبذلون جهدًا جبّارًا في كل الميادين، لعرض خدماتهم، وبوس الأيادي.

٣- معارضون بعضهم مشتت، وبعضهم مفتت، وبعضهم في السجن، وبعضهم يحارب طواحين الهواء.

وقد ظلّت النوعيّة الأولى نموذجًا للمواطن المثالي في عرف الحكّام خاصّة في مصر.

ولم يقتصر غسيل المخ على المواطنين فقط، بل وصل إلى الأجهزة الحكومية، حيث ظهر جيل جديد من موظفي القرن الحادي والعشرين، تعاملوا مع المواطنين بمنتهى الاستفزاز، والابتزاز، فأشهر جملة تسمعها في أية مصلحة حكومية، هي: «فين الشاي يا باشا».. كما مارسوا عملهم بمزيد من الاستهتار، والإهمال، فمن منا لم يقل له موظف الحكومة: «فوت علينا بكره».. والمحصلة النهائية لهذا كله إهدار وقت، وجهد دون مقابل، ولا ننسى في هذا السياق الفساد المعشش في أركان المصالح الحكومية، والمحسوبية، والوسايط، ونظرية «ادفع وبعدين اشتكي»..

تعالوا نعمل زووووووم على المواطن المصري؛ لنرصد الآفات .

السلوكية التي أصابته في الثلاثين سنة الأخيرة..

- . المصريون يا جماعة يستهلكون مساحة كبيرة من حياتهم في الحديث عن الماضي بأفراحه، وجراحه.. وإن كنت شاكك أسمعك الأغاني.. ليس هناك ولو فيمتو سنتيمتر في الصحف والإعلام للحديث عن المستقبل.. ولذلك تلاقي كثيرين ليس لديهم أحلام، ولا طموح، ولا خطط يسعون لتحقيقها.
- المصريون يا جماعة يتكلمون أكثر مما يعملون.. ولذلك تنظف شركات المحمول جيوبهم أولًا بأول..
- المصريون يعشقون حاجة اسمها التصنيف، فلديهم عقيدة راسخة بأن كل مصري، يجب أن يوضع تحت أي مسمي من المسميات الآتية (سلفي - إخواني - صوفي - ناصري - تكفيري - جهادي - وطني - ساداتي - أهلاوي - زملكاوي)..
- المصريون يا جماعة سيطرت على كثير منهم النظرة الفردية.. أما النظرة الوطنية فأصبحت نظرة صفراء سوداوية لا معنى لها،

وأصبح شعار كل واحد مصلحتي فوق كل شيء، أو أنا ومن بعدي الطوفان.

- الناس في مصر يشربون من مياه ملوثة، (تقول الإحصائيات إن مصر تشهد أسوأ نسبة تلوّث مياه في العالم).. ويأكلون من أرض زراعية تروى من مياه المجاري، لذا من الطبيعي أن تسمع ألفاظًا ملوّثة، وزبالة في المواصلات، والمناطق الشعبية..
- المصريون يا جماعة أصيب كثير منهم بحالة عامة من البرود، واللامبالاة بما يجري للبلد، فانتشرت عبارات كثيرة على ألسنة الشعب المصري، إما لتبرير الخطأ، أو للتنصل من المسؤولية، أو للهروب منها، مثل: (معلهش - وأنا مالي - يا عم طنش - مليش دعوة - كبر دماغك).
- المصريون يا جماعة يئسوا من وقوع أي تغيير، ويعكس ذلك بعض الجمل المنتشرة على ألسنتهم، مثل: (مفيش فايدة)، (يا عم اللي عايزينه ح يعملوه والواد ح جيبه أبوه)، (اللي نعرفه أحسن من اللي ما نعرفهوش) (دي بلدهم دي مش بلدنا)، (دول ناس واصله وإيديهم طايلة).. وهذه أشهر الجمل التي يرددها

المصريون في الفترة الأخيرة.. فهذا الشعور باليأس قد تجذر في نفسيّة الشعب، ولذلك نجد المواطن المصري يطلق على زوجته لقب الحكومة.. ووجه الاتفاق بين الاثنين هو صعوبة تغييرها مهما فعلت من مصائب وكوارث.

وهذا اليأس من التغيير قد غرسوه بأيديهم في عقول الأطفال، الذين يشبّون على ذلك، فالطفل الوحيد الذي لا يكبر هو بكّار في المسلسل الكرتوني الشهير، واللاعب الوحيد الذي يظل في الناشئين ولا يلتحق بالمنتخب هو كابتن ماجد.

- المصريون يا جماعة أصيبوا بسلبيّة قاتلة، وقد ألف أحدهم - لا أدري، ولا يدري أحد من هو بالتحديد- ثلاثية كثلاثية نجيب محفوظ وهي "طنش تعيش تنتعش" أو كما تعلّمناها، ونحن صغار: طنش تعيش تاكل قراقيش.
- المصريون يا جماعة انقسموا لفئات كثيرة؛ فهناك فئة من الشعب تصطاد في الماء العكر.. وتبارك، وتهلل، وتهبّل، وتطبّل لكل قول.. وفئة أخرى من الشعب تتبنى مبدأ الاستعباط والاستهبال، ولا تعرف حاجة في أي حاجة، ومستفيدة بكل

حاجة.. وفئة أخرى تعرف حاجة في أي حاجة، ومع ذلك تسكت عن كل حاجة، ولا تنطق بأي حاجة، وركبت الموجة ليكون معها كل حاجة.. وفئة ثالثة مبرمجة حياتها على أفكار عششت في نافوخها.. وفئة رابعة مغلوبة على أمرها، وراضية بالحال وعارفة إن بكره يمكن يكون أحسن وأحسن.. ولذلك أقلمت نفسها مع كل ما يِطهَّق، ويزهق في العيشة واللي عايشنها.

وفئة خامسة مطحونة لا تهش، ولا تنش، وتعيش على الهامش، أي أنها -من الآخر- خارج نطاق الخدمة.. وفئة أخيرة فوق البيعة تلقى قدرها إما غرقًا في عبارة، أو حرقًا في قطار، أو تسممًا بأكياس دم ملوثة، أو عطشًا بإنفلونزا الخنازير، أو الطيور، أو تموت مفقوعًا مرارتها من الظلم الاجتماعي الذي تراه.

المصريون آهم.. من يراهم، ويسمع عنهم اليوم يقول إن هذا الشعب غبي، ومضحوك عليه، والحقيقة أن الذي رأى، وسمع هو الغبين والمضحوك عليه؛ لأن المصري طوال عمره ذكي، ومهما حصل له، ومهما تدهور حاله فهو دائمًا يصنع المعجزات بذكاء، وعبقرية،

ويفاجأ العالم كلّه بما يغير وجه التاريخ، والجغرافيا، والفيزيا، والكيمياء، والأحياء، وكل المواد..

ويحضرني قصة وقعت أيام الحملة الفرنسية، وهي تبين ذكاء المصري، وحنكته في تصرفاته التي قد يفسّرها البعض على أنها بلاهة وغباء، فالتجار المصريون في هذا الوقت كانوا يرفضون التعامل مع الفرنسيين بالعملات الذهبية ثمنًا لما يبيعونه لهم، لكنهم كانوا يقبلون أزرار الجنود الفرنسيين النحاسية بدلًا منها، وقد عرف الفرنسيون ذلك أن هؤلاء حمقى، وأغبياء، فتسلّوا بهم كثيرًا.. ثم اتضح فيما بعد أن المصريين أبالسة، وعفاريت، حيث لم يريدوا الاحتفاظ بعملات ذهبية فرنسية؛ لأنهم على يقين بأن الفرنسيين سيرحلون حتمًا، وأن جيوش مراد بك سوف تعود لتعدم من تجد معه هذه العملات بتهمة الخيانة.. بينما الأزرار النحاسية تعني أن المصري قتل جنديًا فرنسيًا، أو سرقه، هذا بالإضافة إلى أن سعرها سيرتفع بمرور الأيام..



حكومتنا زي العسل

«الشعب ده ماسك فى إيد الحكومة كأنها أمه اللي ولدته»

«خالد صالح في هيَّ فوضى».

ملعون كل شعب يزعّل حكومته منه، أو حتى ينظر لها نظرة غضب؛ لأن الحكومة -أية حكومة- مثل السُّكَّرة، تسهر تخطط، وتظبّط من أجل راحة الشعب، ومع ذلك.. الشعب مثل القطط ياكل، وينكر.. يأكل الـ٣٠٪، وينكر.. ياكل الرغيف المدعم الذي كلف الحكومة شيء وشويات، وينكر.. ياكل القمح الفاسد، وينكر (آسف؛ لأنه مش حيلحق ينكر).. ياكل من الأرض المروية بمياه المجاري، وينكر.. ياكل في نفسه، وينكر.

وبصراحة -ومن غير مواربة- الشعب الوحيد الذي دأب على إزعاج حكومته دومًا منذ أكثر من نصف قرن هو الشعب المصري.. مما يؤكد أن إرضاء هذا الشعب غاية لا تدرك، ولو بشق الأنفس، أو حتى الطرق، والترع.

وهذا يدعونا إلى التساؤل عن سبب توتر العلاقة بين المواطن، والحكومة، هذا التوتر الصامت السلمي الحضاري، الذي لا يتجاوز حدود السخط القلبي، والذي تعكسه عبارات الرضا، والصبر، والتسليم لقضاء الله، إلى غير ذلك مما نسمعه في الأتوبيسات، والمواصلات، وفي الواقع الاجتماعي للمصريين، مما يؤكد أننا مصريون صابرون راضون.

وفي حقيقة الأمر، إنني أرى علاقة المواطن بالحكومة أشبه بعلاقة الزوج بحماته، أو علاقته بزوجته، أو بزوجة الأب، ففي الحالات الثلاث، سنجد سلطة الفرد المتحكم، والقرارات الإلزامية، والخنقة، والكتمة على القلب.

فالحكومة أصبحت قدرًا كالزوجة النكدية، فإما أن ترضى أنت -كزوج- بالمر، وإما أن تخبط دماغك في أقرب حائط، وفي كلتا الحالتين أنت مقهور على أمرك، ولكن ما باليد حيلة، ولذلك تأقلم نفسك على الحياة معها؛ لأنك لا تجرؤ على تطليقها.

كما أنها أصبحت قنبلة ذرية كالحماة التي تحرق بيت ابنتها من حيث تحسب أنها تحافظ عليه، فإما أن يخضع الزوج لها حتى ينال رضا زوجته، وإمّا أن تزوره كل سنة مرّة حتى ينجو بنفسه، وبيته من ألاعيبها.

كذلك أصبحت سلطوية كزوجة الأب التي تنكد على ابن زوجها ليل نهار، وتبتزه بصورة مشروعة، وغير مشروعة، فإما أن يرضى الولد بحياته، وبالتفرقة العنصريّة بينه، وبين إخوته من أبيه، وإما أن يهرب من البيت، ويقرر الشارع مصيره.

وفي الحقيقة، أنا نفسي ألاقي الشعب المصري -ولو مرة في حياتي- واثقًا في حكومته، ويدافع عنها في أي موقف، أو قرار تتخذه، لكن ما يحدث أن الشعب حين يتحدث عنها، يشير إليها بضمير الجمع الغائب، (همَّا عملوا وهمَّا سوّوا) كأن الحكومة في نظره ما هي إلا جماعة تفعل ما يحلو لها، فالبلد بلدهم، والشعب -من وجهة نظرهم، ونظرها- طبعًا مجرد ضيوف فيها، ولذا فهو مغلوب على أمره، وتكون الحكومة دائمًا هي الفاعل، والشعب هو المفعول به، واستغفر الله العظيم.. على قلة الأدب دي.

إنها أزمة ثقة؛ لأن الشعب لو وثق في حكومته، فإن هذه الثقة ستدفعه إلى العمل، والمشاركة في البناء، والتنمية.. ستحوّله إلى دينامو لا يعطل أبدًا.. ولكن -للأسف- الشعب بسبب الحكومة نام، واستغطى، وأصيب بحالة خمول غير معقول.. حيث أصبح يعمل بغير نِفْس.. يذهب إلى العمل كل صباح بقرف، ويتلكّك بأيّة حاجة كل يوم حتى لا يذهب إلى العمل، ويحفظ أيام العطلات الرسميّة انتظارًا للإجازة.. وعلى الفرض أنه ذهب يومًا ونِفْسه مفتوحة، ونشيط؛ فإنه سيصاب بصدمة، وانتكاسة في الطريق لما الإشارة تقفل، أو ينحشر كقطعة لحم على قلاية في الأتوبيس، أو زوجته تنكّد عليه لفشله في كل حاجة.

وقد لاحظت ظاهرة غريبة جدًّا على معظم المصريين أثناء ذهابهم للعمل، والعودة منه آخر اليوم، فلو ساعدك الحظ، والمرتب، وركبت (ميكروباص) ستلاحظ هذه الظاهرة، بل إنها أوضح في الأتوبيسات، حيث يجلس الركّاب على المقاعد كأن على رؤوسهم الطير، لا ينطق واحد منهم بكلمة، وتفاصيل وجهه تحكي -في صمتٍ- بؤسه، ويأسه، ومعاناته، وألمه، وقرفه من العيشة واللي عايشنها، ومن غير مزايدة هذه هي الحقيقة، جرِّب مرة، وافتعل أي حاجة ينتج عنها سوء تفاهم بينك،

وبين أحد الركّاب، ستجد أن الدنيا قامت، ولم تقعد، وزعابيب أمشير هبّت، وبقى نهار طويل عليك وعليه.

- لماذا يحدث هذا؟

السبب من وجهة نظري حصيلة الظروف المعيشية، والحياتية التي يحياها المواطن، ويعانيها كل يوم. وأولها المرتّبات، والأجور، وبصراحة مستحيل أي موظف يكتفي بمرتبه، خصوصًا في ظل التصاعد المستفز للأسعار، ولذلك الموظف المصري الكحيان يبحث دائمًا عن بديل يسند هذا المرتب الذي تعصف به متطلبات المعيشة قبل أن ينتهي الشهر، والخيارات متوافرة أمامه، فأمامه فرصة كبيرة، ومتاحة لأن يسرق خاصة وأنه مقتنع بأن المجتمع كله لص كبير، أمامه فرصة يومية لأن يرتشي خاصة وأنه يرى نماذج كثيرة تمارس هذه الجريمة، وعايشه حياتها، أمامه فرصة متعبة قاصمة للظهر لأن يعمل بعد الظهر، ويصبح كالثور المربوط في ساقية، ويعيش معاناة يومية باهظة.. وفي هوجة المتاعب، والمطالب، والهموم اليومية يبحث عن شيء يجعله يتوه وينسى، فيلفّ سيجارة بانجو، أو يضرب حجر حشيش، ومعه يعيش، ويوم ورا

يـوم يظـل سـكران في تلـك المعمعـة إلى أن يرتـاح راحـة أبديـة... ولا يمكنك في هذا كله سوى التعاطف الشديد معه.

ثانيًا: الرتابة المقرفة التي أصبح المواطن المصري مستسلمًا لها حتى أحرقت حياته وآماله، فالذي يبيت فيه يصبح فيه، وليس هناك جديد؛ فالمواصلات ما زالت مزدحمة، بل تزداد ازدحامًا كل يوم، والاختناق المروري ما زال قائمًا كل يوم، والعمر يضيع هباءً في كل إشارة مرور، والأسعار ما زالت تواصل صعودها المستمر، والمرتّب هو هو محلّك سر.

ثالثًا: الشعور بالظلم، الذي ينتج عنه كره العمل، والحياة كلّها، ولو دوّرنا عن سبب عدم حبه للعمل سنجده -من وجهة نظره- ضعف الرواتب والأجور في الوقت الذي تواصل فيه الأسعار سباقها المحموم. ولما يسألني واحد عن السبب في ضعف الرواتب والأجور، سأقول له: لأن هناك سوء توزيع في الدخول، فيه وزارات ليست على قدر كبير من الأهمية أسميها أنا وزارات ترفيه، وتدليع المواطن.. هذه الوزارات تنفق أموالًا باهظة جدًّا في الوقت الذي تظلم فيه وزارات

أخـرى غايـة في الأهميـة، ويعـوَّل عليهـا في النهـوض بالبلـد كـوزارتي التعليم، والبحث العلمي على سبيل المثال.

وقد سألت مواطنًا مصريًّا مـن المطحـونين في الأرض، وقلـت لـه: ماذا تريد من الحكومة؟ قال على الفور: «**إنه عايز منهـا أن تتركـه يعـيش مستورًا، وبكرامته**».

وواحد آخر سألته نفس السؤال، فأجاب أنه يريد من الحكومـة أن «**تسيب الغلابة اللي زيه في حالهم**».

إن المواطن لا يريد مياهًا نقيّة معدنية، وإنما يريد مياهًـا نظيفـة.. لا يريد أن يركب سيارة أحدث موديل، وإنما يريد أن يذهب إلى عمله دون تأخير، ويعود إلى بيته دون تأخير.. لا يريد أن يصيّف في مارينا، أو شرم الشيخ، وإنما يريد أن يصيف في بيته وهو مرتاح البال.. لا يريد أن يكون لديه رصيد في البنك، وإنما يريد أن يكون لديه رصيد في جيبه يكفيـه إلى آخر الشهر.. لا يريد أن يسكن في مدينتي، ولا الرحاب، وإنـما يريـد أن يسكن في شقة محندقة على قده هو وعياله.. لا يريد أن يأكل كرواسـون، أو عيش فينو، وإنما يريـد أن يأكـل الرغيـف المـدعّم.. لا يريـد أن تكـف الحكومة عن سن القوانين، والمشروعات الاستثمارية التي تـدر الأمـوال

في جيوب رجال الأعمال فقط، وإنما يريد ألا تطنش الحكومة على كل مشروع فيه مصلحة للمواطنين.. لا يريد حياة الرفاهية، أو الحياة الأمريكاني، وإنما يريد ألا تكون في مصر حاجات خارج نطاق الخدمة..

أظن أن هذه الأمنيات كلها غير مكلفة، ولا تحتاج إلى ميزانيات، ومصروفات، وخلافه، لذا فالواجب على الحكومة أن تستر هؤلاء المواطنين الغلابة، وتتركهم في حالهم، ولا تقترب من جيوبهم الخاوية الخالية، فمن الواضح أنهم لا يريدون غير الستر.

لو حققت الحكومة أمنيات هؤلاء، فإني سأكون أول المصدقين للدراسة الحكومية التي تقول إن ٨٣ ٪ من المصريين سعداء..

إن أية علاقة في الحياة بين اثنين قائمة على الأخذ والعطاء؛ وهي علاقة طردية تضمن لها البقاء، ولذا لا أتصور شعبًا محرومًا من كل حقوقه، أو أغلبها، ويكابد، ويعاني، ويعافر في الحياة، ويشعر أنه يعيش كمالة عدد، ولا يأخذ شيئًا مما يرجوه من وطنه، ليس منًّا، ولا تفضّلًا، بل حقًّا واجبًا على وطنه تجاهه، لا أتصور أن هذا المواطن سيعطي وطنه شيئًا مما هو مطلوب منه اللهم إلا بقوة إجبارية، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نجد أن لكل حكومة في العالم -أيًا كان ترتيب هذا العالم

الأول، أو الثاني، أو الثالث- مبدأً تسير عليه، وتضع سياستها وفقًا لهذا المبدأ، ومن ثم فإن رؤيتها للمستقبل تسير نحو اتجاه واضح.. فهذا هو شأن الحكومات في العالم، والمبدأ والمنتهي دائمًا في كل بلد متقدم هو المواطن..

أما نحن، فنطالبه بالعمل، والإنتاج، وهو لا يأخذ ما يكفيه من ناتج كده، وعرقه، وتعبه، ويشعر أنه خارج الحسابات تمامًا، لذا من الطبيعي أن يفتر حماسه، وتضعف همته، وينام في البلوظة.

ومهما يكن من أمر العلاقة بين المواطن، والحكومة، فإني ما زلت مُصرًّا على أن حكومتنا عسل مهما زادت البطالة، وهاجرت العمالة..

ما زلت مصرًّا على أن حكومتنا عسل، مهما تدنّت الصادرات، وهربت الاستثمارات.

ما زلت مصرًّا على أن حكومتنا عسل مهما تآكلت الدخول، وتلاشت مستويات المعيشة.

ما زلت مصرًّا على أن حكومتنا عسل مهما انتشرت الأمراض، وتوغل الفقر في البر المصري.

ما زلت مُصرًّا على أن حكومتنا عسل مهما تراكمت الديون، وساد الفساد، وانتحر العباد.

ما زلت مصرًّا على أن الحكومة تحبنا، وتذوب في حبنا لكننا ما زلنا نوهم أنفسنا بعكس ذلك. .

وعلى كل حال، أي مواطن مريض بهذا الوهم أصف الروشتة التي وصفها الطبيب لرجل ذهب إليه يظن -وإن بعض الظن إثم- أن الحكومة لا تحبه، مع أنه يحبها من كل رُوحِه، ودمه، ويدعو لها ليل نهار بطول العمر، فوصف له الطبيب وصفة بعيدة عن الطب، لكي يطرد هذا الظن من عقله وقلبه، حيث طلب منه أن يردد هذا القول على الدوام قبل أن ينام:

«**أنا بحب الحكومة.. والحكومة بتحبني.. أنا بحب الحكومة.. والحكومة بتحبني**».

أما الروشتة التي أصرفها للحكومة فهي، أن ترجع الحكومة لعهد زمان، حيث:

١ - كانت أكبر هنة لوزير كبير مثل طه حسين أن يقول: «**وجودك تشريف للعلم يا مولاي**».

وقد استنكر الشعب هذه العبارة من رجل كطه حسنين إلا أنه بررها بقوله: «**إننا نريد أن نمرر أن يكون التعليم مجانيًا**»..

٢- كان رفعة الباشا، وصاحب الدولة مصطفى النحاس رئيس وزراء مصر واقفًا في محطة مصر بعد جولة انتخابية قام فيها بالدعاية لحزب الوفد، كان واقفًا وحده دون حراسات مشددة، أو حتى مخففة، دون أمن مركزي، وإذا بشاب متهور يقترب منه، ويصفعه بالقلم على وجهه!

- **يا للهول!**
- **على وجه من؟**
- **على وجه رئيس وزراء مصر في ذلك الوقت!**
- **كل شيء جائز، لكن اسمع هذه المفاجأة..**

ذهب مصطفى النحاس إلى قسم الأزبكية، ومعه الشاب الذي صفعه، وحرر محضرًا بالواقعة، وانتهى الأمر عند هذا الحد!

(بدون تعليق!!.. علق أنت)

٣- يَنسِبُ أهالي كفر مصيلحة إلى عبد العزيز باشا فهمي -وزير الحقانية في وزارة سعد زغلول- الفضلَ في القضاء على البطالة في الكفر، حتى إنهم يتندرون أنه قام بتشغيل الحمار، وترجع قصة الحمار الذي قام

بتشغيله عبد العزيز فهمي، وصرف له راتبًا، عندما أصيبت قدم الحمار في حادث قطار فأمر الباشا بصرف راتب شهري للحمار لشراء البرسيم مقابل توصيل الحمار البريد لأهل الكفر!!

المخصخصاتي

اشتروني واعرفوا قيمة غلاوتي
«وردة في آه يا ليل يا زمن»
شوف الشاري مين...
«عبد الحليم حافظ»

لو كنت أجيد فن اللطم، والندب لقعدت -كما الولايا- ألطم، وأندب على كل المصانع، والشركات، والمؤسسات العامة التي تخصخصت بعد أن وقعت في أيدي مجموعة من الخيبانين، والفاشلين الذين مصمصوا الـ «ق.ع» ورموه عظمًا بعد أن أخذوه لحمًا، وخلُّونا على الحديدة، حتى الحديدة هي الأخرى شحَّت في السوق؛ بعد موجة الغلاء التي سادت سوق الحديد، وعمليات التعطيش، والتجويع التي تقوم بها مافيا الاحتكار.

وفي رحلة بحثي عن بديل للأساليب الحريمية السابقة، أنفِّس به عن كم الغيظ، والحزن، والأسى؛ وجدت بالإذاعة رائعة (مرسي جميل عزيز): «عوَّاد باع أرضه»، التي كان أجدادنا زمان يسخرون بها من أي فلاح يبيع أرضه؛ لأن الأرض -في نظرهم- كانت تعني الشرف، والعرض، والكرامة، ولذلك كان التفريط فيها يعني التفريط في

الشرف، والكرامة، ولعلكم تلاحظون أن هذه الأغنية لم نعد نسمعها الآن، وهذا طبيعي لأن هذه القيم لم تعد تُهِم أحدًا في هذا العصر، كما أن هذه الأغنية تتعارض مع السياسة العامة للخصخصة.

وهذه الأغنية حينما سمعتها أحسست أنني حظيت بكَنْزٍ ثمين لا يجب أن نفرّط فيه؛ خصوصًا في المرحلة الآتية التي ستكثر فيها عمليات البيع.

ولقد كنت أشعر براحة لا مثيل لها كلّما سمعت كلماتها، حيث كنت أتمنى أن تلعب دورها في إحراق قطار الخصخصة الذي يدهس المواطن، ويفرمه، لا سيما وأن الأغاني أحيانًا تلعب دورًا كبيرًا في السياسة، ولعلكم لا تنسون الأغاني الوطنية، ودورها في كفاحنا الوطني ضد الاستعمار، إذ ربما يجعل التجريس عواد يكف عن بيع أملاكه التي ورثها عن أجداده، لكن للأسف عواد نفّض لكل هذا، ولم يؤثّر فيه تجريس، أو تهييص، بل زاد في عناده، واستمرّ في البيع، وبأبخس الأثمان، وأقسم لكم أنه لن يفيق إلا بعد خراب مالطة..

عارفين ليه؟

لأنه عوَّاد، أي يعـود إلى هـذا الفعـل مـرة، ووراء مـرة، حيـث تعـود عليه، ولن يكفّ عنه أبدًا.

وقد يعذر البعض «عَوَّاد» فيما يقوم به من بيع أملاكه، فربما لم يكن أمامه خيار غير هذا، خصوصًا، وأن هذا الخيار أخذ به العالم كلّه شرقًا وغربًا، لكنـي - وبعـد إذنـه- لا أعـذره مطلقًـا فـيما فعلـه، ويفعلـه؛ لأن الخيارات كلها متاحة أمامه، ولن يعجز عن ابتكار أساليب جديدة يخرج بها من الأزمـة اللازمـة، فهـو مـصري، وأبـوه مـصري، وجـده مـصري، والمصري معروف عنه أنه صاحب تفانين، يبتكر الحلول الجدّية إذا وقـع في أزمـة، أو مـأزق، أو تكـاثرت عليـه الأعبـاء الماليـة التـي تلزمـه بهـا الحكومة الزوجية.

إن أكثر ما يغيظني من «عواد» أنه لم يضع خطة، وبرنامجًا للبيع، كما أنه لم يوف بوعوده التي قطعها لأهله، حيـث وعـدهم بـأنهم سيعيشون في عصر النغنغة، والبغددة، والرفاهية الاجتماعية، وستكون هناك فرص كثيرة لحياة أفضل.

طيب..

ما رأيكم لو تركنا «عواد» يبيع أرضه -(وطبعًا من المؤكد أنكم تركتموه من زمان، لكن أنا اللي جيت متأخر)- وجلسنا نناقش موضوع عواد بأسلوب علمي حتى لا نكون مفترين على الرجل، أو نتحدث بعشوائية، وبكلام عاطفي بعيد عن الحقائق، والوقائع.

العملية التي يقوم بها عواد تسمى "الخصخصة"، وهي في تعريفها الشعبي البسيط تعني بيع الدولة -كل اللي وراها وقدامها- وتصبح «ملط.. يا مولاي كما خلقتني»، وفي تعريفها العلمي الاقتصادي تعني نقل أصول عامة، أو خدمات عامة من الحكومة إلى القطاع الخاص، وفي كلا التعريفين تعني ذبح القطاع العام، وسلخه، وشويه ثم تقديمه على طبق من ذهب للقطاع الخاص.

وقد تبنت الدول النامية هذا الأسلوب لتخفيف الأعباء المالية التي تسببها شركات القطاع العام الخاسرة، وتحسين الكفاءة الاقتصادية بالاعتماد على القطاع الخاص في دفع عجلة التنمية، مما يعني مزيدًا من كفاءة التشغيل، وفتح آفاق أوسع للمنافسة الحرة، التي تطفئ -ولو نسبيًا- نار الأسعار، وهذا معناه توفير سلع، أو خدمات رخيصة بجودة أفضل.

إلى هنا وهنا فقط تبدو الخصخصة جميلة، وشكلها حلو طالما ستكون مفيدة بهذا الشكل، وطالما ستستغل عوائدها في إنشاء مشروعات تنموية، توفر فرص عمل لتشغيل الشباب، وتحسين الدخول، وتحديث الصناعة المصرية، وغيره مما وُعِدْنَا به نحن، وآباؤنا من قبل.

وهذا يدل على أن الخصخصة ليست شرًّا وبيلًا كلها، كما أنها ليست سياسة متبعة في البلاد النامية فقط، وإنما هي في البلاد المتقدمة، حيث ولدت، ونشأت في أوربا.

تعالوا نرجع إلى الوراء؛ لنبحث عن العبقري ابن العبقري الذي افتكس هذه السياسة الجهنمية.

أولًا الخصخصة، أو كما أسميها المصمصة: مصطلح شاع استخدامه بدءًا من حقبة الثمانينيات من القرن الماضي، مع بوادر نهاية الحرب (الكول) بين الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي السابق، فعقب انتهاء هذه الحرب انقضَّت الرأسمالية المفترية على نظام دولة الرفاهية في المجتمعات الغربية، الذي كان القطاع العام ركنًا مهمًّا من أركانه الأساسية.

ومن هنا انطلق قطار الخصخصة في الغرب بقيادة (مسز تاتشر) في بريطانيا، ومستر (رونالد ريغان) في الولايات المتحدة. وأخذت قلاع القطاع العام في الغرب تنحرق، وتتساقط تحت ضربات الخصخصة، وبما أن العالم أصبح قرية واحدة، بل حجرة واحدة .. شق قطار الخصخصة طريقه بسرعة البرق إلى الدول النامية، فأصبحت الخصخصة جزءًا رئيسًا في نظامها الاقتصادي.

على كل حال، هذا القطار عندما دخل محطة مصر دهس أمامه المواطن الغلبان الذي تزعم الحكومة أنها تبيع من أجله، وأخشى أن يأتي يوم تقرر فيه عرض هذا المواطن للبيع، ولو كنت حيًّا هذا اليوم لنصحتها بأن تعدل عن قرارها؛ لأن هذا المواطن لن يساوي في سوقها بصلة، فما قيمته عند البيع ونصفه أمراض؛ «فشل كلوي – فيروس C – تيفود – مرارة من الفقعة والغيظ – سكر زيادة عن اللزوم – ضغط – قلب»

ونصفه الآخر إحباط، وتشاؤم، وهزيمة نفسية، وخيبة أمل، وانكسار.

- **وإني من هنا أوجه خطابًا مفتوحًا للخصخصة:**

عزيزتي الخصخصة إلى الآن لم نر أثرًا ملموسًا لكِ، فأين حصيلتك التي وُعِدْنا بها.. هل أنتِ كابوس، أم أمنا الغولة التي كانوا يخوفننا بها ونحن أطفال، صورتكِ حلوة، وجميلة لكنك أصبحت من أقبح الوجوه شكلًا إلينا، والنحس منذ عرفناك لم يفارقنا، لقد جلبتِ معك الخراب والدمار، وصفيت دم الشعب، ومصمصت عظامه، وأقسم بالله لو كنتِ بشرًا لشربتُ من دمك، ولست متجنيًا، فهو دمي، ودم إخواني الممصوص.

أكيد كلكم تقولون الآن إن هذا الرجل فقد عقله، وأصبح مانخوليا.. وعندكم حق في ذلك، وسامحوني لأنني من فرط الغيظ، وحرقة الدم، والمرارة أصبحت أكلم نفسي، كغيري من ضحايا الخصخصة المشرّدين الذين أنزلهم قطار الخصخصة من عرباته ليأخذوا مكانهم المحجوز لهم سلفًا في طابور البطالة، مما أدى إلى ازدحام المحطة بالمُسرَّحين؛ وذلك لأن المستثمر الفلاني بسلامته بمجرد دخول المشروع، أو الشركة في بطنه قام بتسريحهم، إما عن طريق المعاش المبكّر

أحيانًا، أو عن طريق نقل خطوط الإنتاج إلى محافظات أخرى بعيدًا عن مقر إقامتهم؛ لإجبارهم على تقديم استقالاتهم.

ماذا تتوقعون مني بعد كل هذا غير ذلك، والحمد لله أن الموضوع وصل إلى حد الخطرفة بالكلام، ماذا تتوقعون من شخص يتقطع كغيره غيظًا، وألمًا وهو يرى بلده -الغالية علينا كلنا- تباع قطعة قطعة للأجانب.. ماذا تتوقعون من شخص يتعكّر مزاجه، وينحرق دمه وهو يشاهد مسلسل بيع البلد بإنتاجه السيئ، وإخراجه الفاشل.. ماذا تتوقعون من شخص يصاب بلوثة عقلية وهو يرى شركات البلد، ومصانعها، وكل ما هو «ق.ع» فيها مما بني بجهد، وكفاح، وعرق الأجيال الماضية يهدر أمام عينيه. ماذا تتوقعون من شخص يتمنى دائمًا أن يرجع بآلة الزمن؛ فيخبر هذه الأجيال بما يفعله ورثتهم فيما سهروا على تشييده، وبنائه ليالي وأيامًا، وذلك حتى يريح ضميره، وينفي عن نفسه أية شبهة تواطؤ.

بلدنا - يا مخضوضين من كلامي - تشهد أكبر حملة بيع في تاريخها.. أصبح يباع كل شيء فيها الحلم.. والأمل.. والضمير.. والصوت.. والإرادة حتى الإنسان نفسه، أو بعض منه؛ ككليته مثلًا..

نعود إلى اللهو الخفي الذي نتكلم عنه، وهو الخصخصة، وبعد إذن المسحّراتي "اللي كل ليل في رمضان يهاتي".. أصبح عندنا وظيفة جديدة استحدثت في عصر الرأسمالية المفترية، وهي وظيفة المخصخصاتي، الذي يمسك الطبلة، ويطوف يدلِّل على الشركات والمصانع.

وأكيد كلكم تعرفون المدللاتي، وهو في العرف الشعبي الشخص الذي يقوم بترويج سلعته من خلال التغنّي بها، ومدحها؛ ليرغب فيها المشتري. لكن المخصخصاتي هنا في عرف البيع، وخراب الديار هو الشخص الذي يقوم بتمويت البيعة، وتبرير عملية البيع بحجج واهية لا تقدم، ولا تؤخّر، بل بالعكس تقدم الفقر الذَّكر، وتؤخر إلى الوراء في آخر صفوف الأمم المتقدمة، فهذه الحجج تقوم دائمًا على أن الـ«ق.ع» قد أصيب بالروماتيزم، مما شلّه، وجعله عاجزًا عن القيام بدوره في سدِّ حاجات الشعب؛ نتيجة وقوعه في أيدي فئة فاشلة جامدة تسبَّبت في سوء أداء الـ «ق.ع»؛ لأنها لا تهتم بشيء سوى الكراسي فقط، فعاشوا بذلك على خراب الآخرين.

لقد كان الـ«ق.ع» فيما مضى يجرّ قاطرة التنمية في المجالات كافة، ويسدّ الخروم المتَّسعة التي تصيب الميزانية العامّة للدولة، أمّا الآن فإنه أصبح كالبقرة الحلوب التي يهمل صاحبها في رعايتها، ويقصّر في حقوقها من برسيم، وخلافه، فيقلّ، أو يختفي لبنها، وما إن يبيعها لمن يحسن رعايتها حتى ينزل لبنها من ضرعها كالسيول.

على كل حال، أنا أرى أن الـ "ق.ع" منحوس من زمان، ولذلك لا داعي لعمليّة البيع؛ لأن النَّحس في العادات الشعبيّة لا يُفكّ إلا بنذرٍ، أو بزيارة الأوليا والمشايخ، لذا كان من الأفضل أن تنذر الحكومة نذرًا لأولياء الله الصالحين حتى ينفكّ النحس المعشش فيه، ومدد يا سيدي وِرْوِرْ مدااااااااااااد........

عشّ الدبابير

«دلوقتي الشعب في خدمة حاتم واللي ميحبّش حاتم يبقى ملوش خير في مصر»

«خالد صالح من فيلم هيّ فوضى»

لو سُئِلتُ يومًا ما المكان الذي لم أدخله، وأدعو الله كل يوم ألّا أدخله، مع أن هذا المكان يدعوني -أنا وغيري- لدخوله من خلال اليافطة المعلّقة على مدخله، والمكتوب فيها: ادخلوها بسلام آمنين، (على فكرة معظم الأقسام رفعت هذه اليافطة).

لو سئلت عن ذلك المكان، فسأقول قسم الشرطة.. كفاني الله وإياكم شرّه.. ولو سئلت كذلك عن أكثر الصفات انتشارًا بين المصريين لقلت صفة الخبص، واللبص على خلق الله، فالخبّاصون، واللبّاصون صاروا أكثر من الهمّ على القلب، والعصافير[1] ملأت البلد، فقد زادت مُعدّلاتها في الآونة الأخيرة، بحيث أصبح لكل مواطن عصفور حسب آخر تقرير، وهذا الأمر يدعوني أنا شخصيًّا إلى القلق، والتوجّس والشك، فمن الممكن أن يقع هذا المقال بين يدي قارئ من القرّاء،

---

[1] جمع عصفور، وهو التطور اللغوي لكلمة مخبر.

تحسبه قارئًا وهو عصفور بن عصفور، فتكون «وقعتي طين» عليَّ، وعلى أهلي أجمعين.

لذا رأيت من الآمن لي، ولكم، وللعصافير أن نتكلّم بالضمير المستتر، ربنا يسترها علينا، وعليكم.. قولوا آمين..

وقبل أن أمضي في الحديث عن سر الحساسية المفرطة بيني، وبين أقسام الشرطة، أريد أن أتوقف قليلًا لأرسل تعظيم سلام عبر البريد المستعجل وعبر الـ SMS لكل واحد ضحّى بنفسه، وراحته، وسهر على أمن، وسلامة المواطنين.. كذلك تعظيم سلام لكل ضابط شرطة ما زال يؤمن بشعار الشرطة في خدمة الشعب.. ونحن مدينون كذلك بالشُّكر، والعرفان للرجل الذي وضع هذا الشعار.

ولحين أن تصل هذه الرسالة المستعجلة، أستطيع أن أعلن -وأنا مستريح الضمير- عن سرّ كراهيّتي دخول أي قسم من أقسام الشرطة؛ حتى لو كان الدخول لتخليص بعض الأوراق الشخصيّة.. ومن المؤكد أن الأغلبية العظمى -أو ما يطلقون عليها الأغلبية الصامتة- ستتفق معي على مبررات هذه الكراهية، لكن بطبيعة الحال، لن تسمع صوتًا لهذه الغالبية المطحونة المنكمشة؛ التي لا تجرؤ على التعبير عن مشاعرها

تجاه الظلم، والقهر الذي تتعرض له، وتُفضّل السير جنب الحيط، أو جوه الحيط إن استطاعت إلى ذلك سبيلًا؛ ظنًّا منها أن الحيط أستر لها، مع أن الحيطان لها ودان، وعينان إن لزم الأمر، أي أنها محاصرة من كل الجهات..

وحتى لا أدخل في سين وجيم ودال، وأفتح على نفسي أبواب جهنم -وقاكم الله شرّها- سأقول كلمتين حلوتين في البداية؛ كي لا نظلم أحدًا من إخوانا إياهم.. فاسمعوا الكلمتين، وربنا يقدرنا وما أحد يفهمنا خطأ..

أولًا: ليس هناك أحد على بر مصر كله إلا ويُقدّر حجم العبء، والمسؤولية الملقاة على أكتاف، ودماغ رجال الأمن، والتي ينوء بحملها الجبال، وتفوق في ضخامتها رفع الأثقال..

ثانيًا: حماية المجتمع، والمحافظة على سلامته مما يتهدده من أخطار، ليست مسؤولية أفراد الشرطة فقط، بل هي مسؤولية أمنية اجتماعية تتوزع على أفراد المجتمع كله..

ثالثًا: «الشرطة هيئة مدنيّة نظاميّة رئيسها الأعلى رئيس الجمهورية.. وتؤدي الشرطة واجبها في خدمة الشعب، وتكفل للمواطنين الطمأنينة، والأمن، وتسهر على حفظ النظام، والأمن العام، والآداب».. وهذا نص المادة ٨٤ من الدستور الحالي.

رابعًا: كل وظيفة فيها الشرفاء، وفيها الضحايا، لكن الأخطاء الفردية لا تفرّق بين شريف، أو غير شريف، فكما كانوا ينصبون علينا في المدارس بأن الحسنة تخصّ، والسيّئة تعمّ، فكذلك تنطبق هذه المقولة هنا أيضًا، ولذلك فإن تصرفات، وتجاوزات قلَّة تسرف في استغلال منصبها تسيء إلى الشرفاء أيضًا.

ما رأيكم في هذا الكلام.. مش كلام جميل طبعًا؟..

أكيد كل هذا كلام جميل، وكلام معقول تقره الأصول..

طيب.. هناك كلام آخر مؤلم، ومفزع، ويوجع القلب فاسمعوه حتى لا تتهموني بالنفاق، وتظنوا أني خريج مدرسة القرع المباشر..

- أولًا: هناك بعض الضُّباط وُجِّهَت إليهم اتهامات بالتعذيب.
- ثانيًا: مصر تشهد أسوأ حالات انتهاك حقوق الإنسان.

- ثالثًا: أي حاجة في المرور تخلص بالفلوس، ولا شيء غير الفلوس..
- رابعًا: في الثمانينيات كان الشعار الشرطة في خدمة الشعب، وفي التسعينيات أصبح الشعار الشرطة والشعب في خدمة الوطن، وفي الألفية الثالثة صار الشعار الشعب والوطن في خدمة الشرطة.
- خامسًا: زمان -وقل للزمان ارجع يا زمان- كانت الشرطة في خدمة الشعب، والشعب والشرطة في خدمة الوطن، وهذا كان زمان أيام يوسف بك وهبي، وحسين رياض، وعماد حمدي، وقد شاهدنا المجهود الخرافي الذي بذلته الشرطة؛ لإنقاذ حياة المواطن أحمد إبراهيم القاطن بدير النحاس، كما سمعنا الجملة التي ظلت تتردد في الإذاعة باسم حكمدار بوليس القاهرة بجلالة قدره (وتصوروا الحكمدار صعَّد الأمر إلى الإعلام!)، فقد كانت الإذاعة تردد بين الحين، والآخر جملة: من حكمدار بوليس القاهرة إلى أحمد إبراهيم القاطن بدير النحاس.. لا تشرب الدواء الذي أرسلت ابنتك في طلبه.

الدواء فيه سمٌّ قاتل.. الدواء فيه سمٌّ قاتل.. هكذا كان حال الشرطة زمان.. من أصغر رتبة فيها لأعلى رتبة.. الكل مسخّر لخدمة الشعب.. أما اليوم فأصبح الشعب، والوطن من شماله لجنوبه، ومن شرقه لغربه في خدمة الشرطة؛ لأنها تؤدي خدمة جليلة للوطن كله، أكيد كلكم تعرفونها..

- خامسًا: زمان كانت الشرطة هي الملاذ الآمن للناس، فكانت أية جريمة تحدث، أو أية مصيبة تقع، تكون الشرطة أول من يعلم، وفجأة تجد سربًا من الدبابير وسط الهلمة المتجمعة مكان الحادث.. أما اليوم فالجريمة تقع عيانًا بيانًا، في عز الظهر، ومع ذلك تكون الشرطة آخر من يعلم، وآخر من يصل إلى مكان الحادث (ممكن أعذرهم في ذلك؛ فأكيد الطريق زحمة جدًّا)..
- سادسًا: زمان في بداية السبعينيات كان أمين الشرطة يطوف في الشوارع ببدلته الرائعة ليضبط الأمن، ويشرف على تطبيق القانون، لذا نال احترام، وتقدير الشعب كله، وقد تَأَكَّدتُ من ذلك عندما سمعت كلمات صلاح جاهين في فيلم خللي بالك من زوزو، وهو فيلم منتج في فترة السبعينيات، حيث قارن

عمنا جاهين أمين الشرطة بالدبلوماسي.. أما اليوم فأمين الشرطة منفوخ، ومنفوش كما الطاووس، ولقب بالباشا.

- سابعًا: زمان كانت البدلة الميري رمز الأمن، والأمان، لذا كان لها هيبتها، واحترامها، ومكانتها في المجتمع.. أما اليوم فتحوّلت إلى رمز للقسوة، والبطش، والتنكيل، والعدوانية، والقمع، والقهر إلى غير ذلك من مصطلحات قاموس الاستبداد..

- ثامنًا: في هذا العصر لا صوت يعلو فوق صوت الشرطة (وطبعًا ده شيء طبيعي؛ لأن السرينة يكون صوتها عاليًا جدًّا).. لذا من الأفضل للجميع أن يعتصم بالصمت «يا عم ابعد عن مادة (اعتصم) بكل مشتقّاتها»؛ لأنها تسبب لهم حساسية، حيث يقبضون -بعيد عنكم- على المعتصمين، وقد تفتح مثل هذه اللفظة بابًا يحجز وراءه سيل لا آخر له من الاتهامات، وغيرها من التهم المعلبة..

كل ما سبق يجعلني أتساءل: لماذا يتردد المواطن العادي كثيرًا قبل أن يدخل قسم الشرطة، حتى أصبح الدخول مغامرة غير محسوبة

العواقب؟! ولماذا لو حظّه المنيّل دفعه للدخول يبقى أمه داعية عليه؟ لماذا تغيّر مفهوم قسم الشرطة في القرن الحادي والعشرين؟

لو تركت قلمي حالًا، ونزلت حاملًا هذه الأسئلة، وطرحتها في الأسواق لإجراء استبيان يشمل قطاعات عريضة من الشعب المصري - فماذا ستكون الإجابة؟

أتوقع -مجرد توقع لا شك فيه- أن الإجابات ستكون مُجمعة على شيء واحد، وهو أن قسم الشرطة يعني في القاموس الاجتماعي المصري إشاعة الخوف بين المواطنين، وتلفيق التُّهم، والقبض عليهم، وحجزهم بدون وجه حق، والتعذيب البدني، والقهر المعنوي؛ بما يصل إلى حد الاعتداءات الجنسيّة ممثّلة في اغتصاب الإناث، أو هتك عرضهن، وهتك عرض الرجال.. قسم الشرطة مسرح قومي لوقائع انتهاك حقوق الإنسان، وانتهاك آدمية المواطنين، وبث الرعب في قلوبهم، فطريقة انتزاع الاعترافات بشعة، والخدمة خمس نجوم، حيث تبدأ طقوس الترحيب بتوزيع الركلات، واللكمات، والصفعات، وصدمات الكهرباء..

ولعل من قمامة القول أن نقول: إن أخطر ظاهرة طفحت على السطح في السنوات الأخيرة، هي ظاهرة الباشا (الأمين).. هذا الباشا (الأمين) على أرواح الناس.. الأمين على أمنهم، وسلامتهم.. الأمين على تطبيق القانون، وعدم محاباة أحد.. الأمين على احترام المواطنين، وحفظ كرامتهم... هذا الباشا خيَّب ظن المواطن فيه، فتحوّل إلى كابوس مفزع، ومزعج خلال السنوات الأخيرة، حيث إن مجرد ذكر اسمه يثير الرعب، والفزع، والقلق في نفوس المواطنين، ولذا يبذل الجميع ما في وسعه، وجيبه استرضاء لجلالته، وحماية للقفا من التلطيش، والجيوب من التفتيش، ولذا يصل الأمر بالمواطن إلى بوس الجزمة، وما بداخل الجزمة لكسب وده، ويتكعبر، ويتكعور، ويتكوّر داخل نفسه أمام هذا الباشا (الأمين).. والباشا (الأمين) بدوره ينتفش، وينتفخ حتى أصبح كالهر يحكي انتفاخًا صورة الأسد كما يقول ابن رشيق.

والذي شجع هذا الباشا (الأمين) على التمادي في العنطزة، والسيادية -التي يمارسها على المواطنين- العقيدة الراسخة لديه بأن المصري لازم «ينضرب علشان يمشى عدل»، ولذا قال القائل: «امش

عدل يحتار عدوّك فيك».. وأعتقد أن الذي وضع هذا المثل لم يضعه إلا بعد أن ذاق علقة ساخنة.. ويبدو أن صدى هذا المثل سمَّع في البلد كلها، حيث نشأ لدينا جيل تربّى على الخوف، والانكماش، والجبن.. يفرِّط في حقوقه، ويقصّر في واجباته، ويتكاسل في عمله، ويكش أمام مديره، الذي في أغلب الأحيان يكون عينًا على الموظفين، ولقد أدت هذه الظاهرة إلى انتشار الكروت الشخصيّة، والكارنيهات الحزبيّة، والتوصيّات البشويّة، فبمجرّد إظهار الكارنيه إياه لهذا الأمين تفتح الأبواب المغلقة، والطُّرق الموصدة.

وهذا الخوف، والرعب من كل صاحب سلطة ليس بجديد، فهو من الموروثات التاريخية، يقول ريتشارد بيرتون وهو رحّالة زار مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر: «إن المصري إذا تعامل مع ضابط الشرطة، أو دخل مركز الشرطة لأي أمر كان، فلا بد أن يضربه الضابط، أو المسؤول على قفاه Upon his kafa حتى قبل أن تثبت التهمة عليه» ويتابع بيرتون، فيقول: «إنك تمرّ مع المتهمين الآخرين؛ ليأخذ كل منهم (قفا)، فإذا جاء دورك أخذت الذي أخذوا، والقفا خاص بالمصري دون سواه، فإذا كنت أجنبيًّا تحرّزوا في إعطائك القفا،

وأحالوك إلى قنصليّة بلدك.. أما عن الضرب بالفلكة (الفلقة).. فيفيض بيرتون في الحديث عنه.

ويحدّثنا رحّالة آخر هو الأمير ردولف من الأسرة الحاكمة النمساوية (الهبسبرج) الذي زار مصر في أواخر عهد إسماعيل: «إن **المصري يخاف خوفًا مرعبًا من الذين يلبسون الملابس الرسمية**».. وقص قصة (خولي) أو رئيس أنفار دخل هاربًا بين أعواد القصب بمجرد رؤية خادم ملكي يرتدي ملابس رسميّة، ويدهش ردولف لذلك مع أنه أمير نمساوي، وكانت النمسا في ذلك الوقت مشهورة بالحكم القمعي العنيف، ومعاملة الفلاحين معاملة سيئة.. انتهى[1]..

وفي ختام هذا الكلام الساخن جدًّا، أعترف مع سابق الإصرار، والترصد أني أتمنى – و«ليس كل ما يتمناه المرء يدركه»، وطالما هذا المرء يعيش في مصر يبقى يقابلني لو أدركه – أن أعيش حرًّا، محفوظ الكرامة، مصان الآدمية، لا ألجأ إلى استعمال أية كارنيهات، أو كروت توصية من أحد.

---

(١) تراث حكم العبيد في مصر المعاصرة.



جمهورية مصر الاستهلاكية

«أنا من البلد دي»

من أول نظرة للجرايد اليومية، وخاصة الجرائد المعارضة، والمستقلّة، ومن أكبر مجلّة إلى مجلة ميكي، لا أملك إلا أن أشدّ في شعري.. ومن المؤكد أن هذا هو المطلوب إثباته، فلا أكاد أنتقل من خبر إلى خبر، أو من صفحة لصفحة حتى تزداد بطني مغصًا، ويزداد قلبي حسرة، وتزداد حرارتي ارتفاعًا، ويزداد نظري ضعفًا، والسبب في ذلك جرعة القرف، والنكد الوطني، والفساد العلني المكثّفة في الجرنال، وخاصة لما أقرأ أية أخبار عن ازدياد معدّل الفقر، وكثرة عدد الفقراء، ونزول شريحة كبيرة من المصريين تحت الخط إياه، وخصوصًا أيضًا لما أسمع صرخات المصريين الذين يشكُون من ارتفاع الأسعار، وصعوبة المعيشة، وأمام هذه الصرخات كنت لا أملك إلا أن أقتنع بأن البلد تقع، وأن الأوضاع منيّلة بـ٦٠ نيلة، وتسير من السيئ إلى الأسوأ، ولذلك كنت غالبًا ما أؤجل مطالعة الصحف حتى نهاية اليوم، فأقرؤها وأنا على فراش النوم، حتى أنام بعدها، وأرتاح، إما راحة أبدية، أو راحة بحلم جميل تتغير فيه الأوضاع، وأرى مصر في صورتها الجميلة التي

أحبها. على كل حال، فإني أظل أقرأ الأخبار، والتحقيقات قبل أن أنام، وبجواري صيدلية محندقة، بها أقراص مهدِّئة، ودواء مغص، وحبوب منع الضغط، وبالكاد أنام بعد قراءة هذه الأخبار، ويوم ورا يوم يا مصر ما جاني نوم.

وأثناء إحدى المطالعات الصحفية، إذ فجأة أقرأ تحقيقًا عن دراسة حديثة أعدها مركز البحوث التجارية، والاقتصادية بجامعة القاهرة تقول: إن المصريين ينفقون أكثر من ١٦ مليار جنيه سنويًّا على مكالمات المحمول، (يا هوي .. ١٦ مليار!).. وإن مصر تعد من أكثر دول العالم ارتفاعًا في معدلات نمو التليفون المحمول، وإن المصريين ينفقون يوميًّا أكثر من ٢٠ مليون جنيه على رسائل، واتصالات المحمول، وإن ٢ من بين خمسة شباب يحملون التليفون المحمول، وإن ٨٠٪ منهم يستخدمون كروت الشحن بنظام البطاقات المدفوعة مسبقًا، ومعظمهم ليسوا في حاجة إلى المحمول، ولكن يحملونه بحثًا عن الوجاهة الاجتماعية.

بل إن الثقيل في القعر -كما يقولون- فقد أوضحت دراسة أخرى أن المصريين يستخدمون الموبايل أكثر من الأوربيين، والأمريكان!

أقرأ هذه الدراسة، وأشاهد ثورة الجياع أمام أفران العيش، والسيدة التي تحمل أكياس المناديل في يد، وطفلها الرضيع في يد أخرى عند محطات المترو، والأطفالَ الذين يملؤون مستشفى ٥٧٣٥٧ التي نبني فيها كل سنة طوبة، والمعتوهين الذين يفترشون الأرض في الميادين العامة، ومنظرهم يسد النِّفس عن وصفهم، وموجةَ الركاب التي تغرق الأوتوبيسات، ويُبطَح، ويُدهَس فيها كبار السن، والخنازيرَ الغلابة التي وئدت غيلة، وأطفال الشوارع المشردين، والعشش الصفيح في العشوائيات، وجبال الزبالة التي تملأ العاصمة، والتي طالت أرقى الأحياء، وصخرةَ المقطم التي فرمت تحتها أربعين منزلًا من سكان الدويقة فأراحتهم من العيشة الهباب التي كانوا يعيشونها، لتؤكد لنا هذه الصخرة أن هؤلاء المرحومين كانوا بالفعل خارج نطاق الخدمة، كما أشاهد المظاهرات، والإضرابات، والاعتصامات التي يشتكي فيها الشعب، ويتألم، ويتضجّر من الفقر، وضيق العيش، ومع ذلك يضرب، ويسحل فيها، ويستمر الحال على ما هو محال.

وبعد هذه الجولة من المشاهدات اقتنعتُ بما كنت كافرًا به قبل هذا من تدهور الأحوال، وانحدار الأوضاع، والبعد عن عنق الزجاجة إلى قعرها، لكن كيف أقتنع بهذا بعد هذه الدراسة التي قرأتها، كيف أقتنع بهذا، وأنا أشاهد يوميًّا طوابير السيّارات التي تجوب شوارع القاهرة، والتي شغفت بعدّها، وتصنيف ماركاتها، وموديلاتها، لدرجة أنني عرفت بعد ذلك أن القاهرة وحدها بها ١.٥ مليون سيارة. كيف أقتنع بهذا، وأنا دائمًا أطلق نظرة لأعلى أثناء سيري لأشاهد أجهزة التكييف المشعلقة في البلكونات، كيف أقتنع بهذا، وأنا أشاهد كذلك السطوح الذي تحول إلى مائدة تمتلئ بأطباق الستاليت، كيف أقتنع بهذا، والشباب ينفق على الجِل ما يقارب من مليار جنيه سنويًّا، كيف أقتنع بهذا وقد جاء في الموقع الخاص بالخطة القومية للاتصالات، والمعلومات على شبكة الانترنت أن استثمارات شركتي المحمول خلال الفترة من عام ٢٠٠٢ حتى نهاية عام ٢٠٠٦ بلغت ٧١٦٦ مليون جنيه، وأن الإيرادات في الفترة نفسها بلغت ٣٣٢٧٤ مليونًا، وأن عدد المشتركين في نهاية يناير ٢٠٠٧ وصل إلى ١٨.٥ مليون مشترك، وأن الشركة المصرية للاتصالات بلغت استثماراتها خلال الفترة نفسها ١٠٥٧٧

مليون جنيه، وإيراداتها بلغت ٣٥٥٩٦ مليون جنيه، وأن إيرادات شركتي المحمول، وشركة الاتصالات بلغ ما يزيد على تسعة وستين مليار جنيه في خمس سنوات، هي فاتورة الكلام الكتير، والرغي الذي يؤكد أننا شعب بيّاع كلام، لا يحسن غير الكلام، أما الفعل، والإنتاج فلا.

وفي الحقيقة، أنا عمري ما رأيت -ولن أرى- شعبًا مثل الشعب المصري يدّعي الفقر، ويكثر من الشكوى، والأنين من العيشة واللي عايشنها ومع ذلك تجد الواحد منه يحمل في يده موبايل أحدث موديل، حتى أصبح المحمول في يد الجميع، من يحتاج إليه وغيره، ناهيك عن كمّ كروت الشحن، والميزدات، والرسائل التي تُستهلك يوميًّا.

أنا لا أمانع أن يحمل الجميع الموبايل، بشرط أن يستخدم في حالات الطوارئ، والأمور العاجلة فقط، وعند الضرورة القصوى، أما غير ذلك فإنه يعد سفهًا استهلاكيًّا، وبشرط أن يحمله من يحتاجه، ولا يستغني عنه لقضاء مصالحه، تذكر الدكتورة زينب الأشوح أستاذة الاقتصاد بكلية التجارة جامعة الأزهر أن هناك شخصًا من أحد الدول

الأوربية جاء في زيارة لمصر فقال: اكتشفت أن جميع المصريين رجال أعمال حتى الأطفال يحملون الموبايلات.

ومن السفه -أيضًا- استخدام الموبايل للاشتراك في المسابقات السخيفة التي تمتلئ بها شاشات الفضائيات، كمسابقات ٠٩٠٠ وعالم كنوز، ومسابقة المفتش كرومبو الذي يخوِّن الشعب المصري، ويتعامل معه على أنه شعب حرامي يخون الأمانة.. ما هذه السخافات المتعمَّدة من كرومبو هذا، ما الذي سيحدث لو كانت فكرة المسابقة إيجابية، وبنَّاءة؟

إن أكبر جريمة ترتكبها هذه المسابقات -بالإضافة إلى جريمة الاستخفاف بالعقول، والتعامل معها بسذاجة وعبط- أنها ترسّخ قيمًا سيّئة، وهدّامة في وجدان المصريين، حيث إنها تشجّع على الكسل، والتواكل، والحصول على المكسب دون جهد، وعناء، بل الأخطر من هذا أنها تشل العقل عن التفكير، والسعي في حلّ مشكلات المواطن في الحياة، ففي هذه المسابقات تحلّ أجعص المشكلات في حياة المصري، وهي مشكلة الزواج، فالجائزة إما شبكة، أو شقّة، أو فلوس، أو عربية وليس بعيدًا أن تكون الجائزة في يوم من الأيام عروسة آخر موديل.

انتشار المحمول ظاهرة واحدة من ظواهرَ كثيرة تؤكد أننا بطن مفتوحة لهضم كل ما يُنتجه الغرب، والدليل على ذلك انتشار الصناعة الصينية في السوق المصرية، فليس هناك بيت في مصر يخلو من منتج صيني، وفي الحقيقة لو كنت أرتدي قبعة لرفعتها للإخوة الصينيين بشرط ألا يكون مكتوب عليها made in china، وذلك لنجاحهم في غزو السوق المصرية، والاستحواذ على نصيب الأسد فيها.

لذا، أتمنى أن نصبح في يوم من الأيام مثل الشعب الصيني، ليس في عدده، وإنما في ذكائه، وقدرته على الابتكار، والخروج بحوالي مليار نسمة من عنق الزجاجة.. لقد أدركت الصين أننا سوق مفتوحة تستهلك، وتهضم كل ما تتخيله، فقاموا بدراسة هذه السوق، ووضعوا خططهم الاقتصادية على هذا الأساس، فأغرقونا بكل ما نحتاجه من الإبرة للصاروخ، لدرجة أن المصريين يتندرون فيما بينهم بأن الصينيين سيوفِّرون عروسة صيني بمواصفات، وجودة عالية جدًّا!.



حرّج عليّ بابا

«كل اللي بيروحوا السينما هيدخلوا النار»

«محمود حميدة في بحب السيما»

بالكلام الصريح المريح سأفتتح هذا العرض الخاص جدًّا لملف من أخطر الملفات التي عكس القائمون عليه الواقع في أسود حالاته، وأنيل أوضاعه.. وهذا الملف هو ملف السينما المفضوحة..

وبداية، ومن غير غضب، ولا عتب، ولا زعل، أنا لا أعرف في السينما، ولست ناقدًا سينمائيًّا، فكلامي هنا مجرد انطباع ورد فعل طبيعي لشاب بسيط من عشرات الشباب الذين ضحك لهم الحظ، ونجَّاهم من جيل الروشنة، وموجة الهلس، وجو التهييس الذي أصبح سمة معظم شباب هذا العصر.

وربما أفاجئ القارئ حين أعترف له بأنني لم أدخل السينما إلى الآن، وأنا أعرف أن هناك من سيسمى هذا رجعية، وتحجرًا، وتزمتًا، وتعسفًا إلى غير ذلك من مفردات قاموس التخلف، وربما ظن أنني بمثل هذا التفكير مجرد رجل معقد أتى من كراكيب العصر الحجري ومخلفات الحرب العالمية..

لكن -وكما يقولون- إذا عُرِف السبب بطل العجب، فسبب عدم دخولي السينما إلى الآن هو أنني لا أمتلك ثمن التذكرة، وقد يندهش البعض من ذلك؛ خاصة أن العمليّة سهلة، وبسيطة، وليست بهذا التعقيد.

وقد يكون هؤلاء على حق، ولكني أقول لهم تعالوا نحسبها بالورقة، والقلم:

التذكرة + ضريبة المبيعات + البقشيش (لزوم فشخرة كدابة) + فستق، ولب، وسوداني (لزوم تسالي) + مياه معدنية، وغازية + مزَّة، وخلافه (لزوم روشنة) + أدوية ضغط، وسكَّر، ومغص، وحقن سخونية (لزوم المشاهد الساخنة، والقبلات الحارة، والأحضان الدافئة، ولزوم القرف، ووجع البطن الذي سيصيبني بعد مشاهدة الفيلم الهابط المعروض).. إلخ..

فهذه حسبة مفتوحة تدخل لها في ١٠٠، أو ٢٠٠ جنيه، فلو تهوّرت، وطاوعت قدمي، ودخلت، سأكمل بقية الشهر أمام هذه السينما أقول: لله يا محسنين، وأنا أعرف أنني سأكسب أضعاف أضعاف

ما أنفقته لو وقفت يومًا أو يومين إلا أن الضرايب لا تترك أحدًا في حاله!

المهم أنني أرحت دماغي، وجيبي، وقبل هذا وذاك نجوت بنفسي من النار؛ لأن محمود حميدة قال: «**كل اللي بيروحوا السينما هيدخلوا النار**»..

وقد اكتفيت بمشاهدة أي فيلم من نسخة مسروقة (وربنا يسامحني) أو أنتظر حتى يذاع على أيّة فضائية من الفضائيات التي تقرفنا كل دقيقة بمثل هذه الأفلام، وتعدنا بمشاهدة ممتعة؛ ربما أفقد معها بصري؛ لأني «مش هقدر أغمض عينيًّا».

لكنَّ واحدًا سيسألني عن نوعية الأفلام التي ربما أصاب بالعمى بسببها إن لم أصب بشيء آخر؟

أقول لهذا الواحد إن معظم الناس يحرص على مشاهدة الأفلام الكوميدية؛ ليهربوا من خنقة الحياة، وضغط المعيشة الذي يزداد كل يوم.. وهناك ناس يعشقون الأفلام التي تحكي قصصًا دراميّة.. وغير هذين النوعين فنسبة الإقبال عليه ضعيفة، وهشّة، كأفلام الرعب

والأكشن؛ ربما لأننا نخرج مثل هذه الأفلام بسذاجة، وعبط، واستخفاف بالجمهور.

وقد انضممت مؤخّرًا إلى قائمة المخاصمين للأفلام بنوعيها؛ حيث شعرت أثناء المشاهدة بأني مغفّل، وساذج، والذنب ذنبي؛ إذ تركت نفسي لهذه الأفلام تعاملني -كغيري من الجمهور- بسذاجة، واستهتار، واستهبال.. وأظن أنه لن يعارضني أحد إذا قلت: إن معظم هذه الأفلام هزيلة، وسطحية، وخاصة الكوميدية التي سيطرت على السينما في الآونة الأخيرة، حيث تشم من عناوينها رائحة السذاجة، والغرابة، وقد وصفها النقاد بأنها «**أفلام بهلوانات**»، حيث يتسابق مجموعة البهلوانات المشتركين في البطولة في خفّة الدم لدرجة السفاهة، والعباطة في بعض الأحيان، فتحس كأنك تشاهد فيلمًا لجماعة هُبْل هربوا لتوِّهم من الخانكة ليخنقوا الناس «أكتر ما هم مخنوقين»..

كما أني أظن أنه لن يعارضني أحد -أيضًا- (ولاحظ أنني مهما قلت لن يعارضني أحد): في أن معظم الأفلام التي عُرضت في السنوات السابقة قد جنت على الجمهور المصري جناية عقوبتها الإعدام رميًا من أعلى عمارة في مصر؛ وهذه العقوبة من وجهة نظري أقل بكثير

من الجُرْم الذي يرتكبه منتجو هذه الأفلام في حق الجمهور المصري.. ويمكن أنا تجنّيت في حكمي هذا؛ لأنه ليس من المعقول أن أرمي صانعي هذه الأفلام بالفشل، أو من أعلى عمارة في مصر، في الوقت الذي تحقّق فيه أفلامهم نجاحًا غير مسبوق، ويشهد على هذا شبّاك التذاكر، والأرقام الفلكيّة التي تحصدها.. أيًا ما كان الأمر فإني أبصم، وأختم لهؤلاء بأنهم عباقرة؛ لأنهم «لعبوها صح»، وفهموا طبيعة الجمهور، وذوقه الزبالة، وحالة السفه، والانحطاط الثقافي الذي يغرق فيه، فركبوا الموجة. والموجة جرت ورا الموجة..

وفي ظل هذه الموجة، والهوجة لا يكون على الجمهور الواعي إلا أن يتحمّل الخيبة، والوكسة الثقيلة التي اتسم بها بعض المنتجين الجشعين، والإفلاس الفني، والثقافي، وثقل الدم، والاستظراف الذي اتصف به البعض من الفنانين الفاشلين..

ومن المؤكد أن كل هذا قد انعكس بالسلب على الجمهور الساذج العبيط الذي وقع -هو وجيوبه- فريسة لأمثال هؤلاء، وإنه لمن السفه، والتخلف أن تترك تلك الفئة الفاشلة لتشكل وعي الجمهور الذي يقلّد أي شيء يراه أمامه، حتى لو وصل به الأمر إلى حد العباطة؛ كتقليد

الشباب لقَصَّة شعر فلان الذي ترك شَعْره ينتشر، ويتوغّل فوق رأسه، وربما وجدت الهوام، والحشرات في رأسه مرتعًا آمنًا لتنتشر، وتتوغل فيه.

ويتضح هذا التقليد الأعمى، والأعور بوضوح إذا أخذنا عينة من هذه الأفلام لنفحصها، فمثلًا سلسلة أفلام «اللمبي» الكوميدية، والتجارية في الوقت نفسه، فقد قالوا إن بعض هذه الأفلام تجاوزت إيراداتها ناطحات السحاب الأمريكية.

أما جناية هذه الأفلام أنه بعد عرض فيلم اللمبي، وجدنا في المناطق الشعبية عشرات الأشخاص أطلقوا على أنفسهم اسم اللمبي، حتى انتشرت الظاهرة اللمباوية، وسادت أرجاء البلاد، وتكرر الأمر مرة أخرى مع فيلم عوكل، فوجدنا في الأوساط الميكانيكية مئات من العُوكَليِّين، وانتشرت كذلك الظاهرة العوكلية، واستمرت إبداعات اللمبي الكبير ففاجأ جمهوره الهزيل بشخصية مختلفة، ونيولوك جديد في فيلم بوشكاش، فظهرت طائفة البوشكاشية، وما زال الإبداع مستمرًّا..

هـذا بالإضـافة إلى ظهـور مفـردات جديـدة مـن نوعهـا تنـضم إلى القاموس اللغويّ الخاص بالشباب، وأصبح لدينا لغة جديـدة هـي لغـة الشباب الروش الطحن.

أما الأفلام التي يقولون عنها إنها تطرح قضايا الواقع، وتعرضـها بلحمهـا، وشـحمها كـما هـي؛ فإنهـا تـصدمنا بهـذا الواقـع المريـر، كفـيلم كباريه، وحين ميسرة، واحكـي يـا شـهرزاد، ودكـان شـحاته، وإبـراهيم الأحمـر -قـصدي الأبـيض-، والفـرح، وبـالألوان الطبيعيـة، وكلمنـي شكرًا.. إلى غير ذلك، وما زال العد مستمرًّا، والقائمة مفتوحة لكـل مـا هو إباحي، وانحطاطي.. وفي رأيي هـذه الأفـلام الأَوْلى بهـا أن تلقـى في سلة المهملات، بل إني أُلوِّث هذه الـسلة بهـذه الزبالـة التـي تؤكـد أن في مصر عاهـات كثـيرة لا يمكـن التعـايش معهـا، والتـي يجـب أن يفـرض عليها حجر صحي حتى لا تنتشر، وتصبح وباءً عامًّا.. فأقـل مـا يمكـن أن توصف به هذه الأفلام هو أنها أفـلام رخيـصة، ومبتذلـة تفـوح منهـا الدعارة المقنَّعة تحت شعارات مزيّفة، وموجّهة لأهداف معيّنة، فهي -في الحقيقة- امتداد طبيعي لثقافـة الانفتـاح عـلى كـل شيء، وفي كـل شيء..

وتخدم الفضائيات المفضوحة التي تتكسّب من هذا الفساد الذي نعيش فيه..

كما أن هذا العصر أتحفنا بعصابة من المخرجين، والمنتجين يعيشون على خراب الآخرين، أو كما وصفهم الأستاذ أحمد المسلماني يتاجرون بالألم، وإذا صارحتهم بهذه الحقيقة العارية قالوا لك: إحنا ما بنجبش ده من عندنا، مش هو ده الواقع، والنماذج دي موجودة في الحقيقة.. إنتوا مش بتعترفوا بها ليه؟!

أقول لهؤلاء كما قال موسى صبري: «**اغسلوا أعينكم لكي ترونا أوضح**».. ليس المصريون على هذا المستوى من البشاعة، والقسوة، والغليان الجنسي.. أنا متّفق معكم أن الواقع الذي نعيشه منيَّل بـ٦٠ نيلة، لكن أختلف معكم في تصويره بهذه الصورة الشائنة، وبدلًا من أن تشوهوه بهذه الطريقة شاركوا في إصلاحه، وتغييره، ولا تكونوا كالمريض الذي يسير بجانب الصيدلية، ويصرخ قائلًا: دماغي حتنفجر.. وكان يكفيه أن يدخل الصيدلية ليأخذ أسبرينة.

أما عن الموضة السائدة في السينما الآن فهي تناول موضوعات جريئة، ومودرن، ومشكلات جنسيّة مثل: الشذوذ الجنسي، والكبت

الجنسي، والعجز الجنسي، وهلم جرا، من كل ما هو جنسي.. وهذا هو سر كثافة التواجد البناتي في هذه الأفلام، حيث تفاجأ أثناء مشاهدة الفيلم بجيش من الفتيات الحسناوات الجميلات، وكأنها ماسورة بنات وانفجرت.. وقد تعاملت السينما طوال عمرها مع الفتيات، أو المرأة عمومًا كجسد، ومجرد سلعة تُباع، وتُشترى، فلا دور لها في معظم الأفلام إلا دور الإغراء، والإثارة، والمشاهد الساخنة، وكلما أتقنت الدور وزادت من المساحات المكشوفة ارتفع سعرها في السوق، وكان حقًّا على المنتجين أن يعطوها ما تريد؛ لأنها تمثّل لهم البقرة الحلوب لدرجة تصل إلى تفصيل أفلام على مقاسها.. وقد عرفت معظم الفنانات -أو من يُسمَّون «نجمات الإغراء»- أصول اللعبة، وما فيها، فدخلوا إلى عالم الشُّهرة من باب الإغراء الخلفي، وشجَّعهم على ذلك فئة من المنتجين المراهقين، والمخرجين الشَّواذ..

وليت الأمر اقتصر على ذلك، بل إن السَّفه وصل ببعض هؤلاء للحد الذي يضاجع فيه رجل رجلًا مثله، أو امرأة مع أخرى مثلها، وتقع بينهما قبلات، وملامسات، واحتكاكات، وتبدأ شرارة الشذوذ تنطلق لتحرق المجتمع كلّه.

وقد تأكدت بنفسي من ذلك حين شاهدت فيلمين من هذه الأفلام الساخنة، ولم أندم في حياتي على شيء قدر ندمي على وقتي الذي ضاع سدًى، حيث وجدت فيهما خرقًا لعادات المجتمع، وتقاليده المقدسة، وإباحية غير مسبوقة تصل إلى الحد الذي تنام فيه «**ممثلة على الفراش، وجسدها ملفوف بالبشكير فقط**»، كما وجدت فيهما جرأة، ومغالاة مفرطة في القبلات الحارة، والأحضان الدافئة، والمشاهد الساخنة جدًّا لدرجة تصل إلى انصهار كل من يشاهدها، وهذا الكوكتيل من المشاهد يقدّمه المخرج في إطار العلاقات المحرّمة شرعًا..

وقد احترت نهاية الأمر، فلو كنت من التقدميين، والحداثين، وأنصار الإبداع فإني سأؤيد هذه النوعية من الأفلام، وأدمنها.. ولو كنت من الرجعيين المتخلفين: فإني سأُكفِّر كل من شارك في هذه الأفلام بداية من البطل إلى عُمّال الإضاءة، وليس بعيدًا أن أكفر الجمهور أيضًا.

حقًّا إنها سينما غرف النوم!!

يا عيني على الصبر

«هو فيه حد في الدنيا يقدر يحوّش من المرتب»

«رشدي أباظة في عالم عيال عيال»

لكل واحد من المصريين أُمنية يتمنى أن تتحقق -وما يقدر على القدرة إلا ربّنا- فمثلًا هناك من يتمنى أن تحِن الحكومة عليه، وعلى أمثاله من الموظّفين الغلابة بعلاوة اجتماعية ٣٠٪ كالتي تم صرفها بعد عذاب مُهين، وهناك من يتمنّى ألا تضطره الظروف إلى دخول قسم شرطة حتى لو كان الدخول لمجرد إلقاء السلام، والتحيّة العسكرية، وهناك من يتمنّى أن ينجيه الله من الأنفلونزا بنوعيها، أو يركب الميكروباص كل يوم، ويذهب إلى العمل في ميعاده.

أما أنا فقد كانت لي أمنية وحيدة، وربما تكون أمنية المطحونين، والمدعوكين من موظفي الحكومة.. هذه الأمنية هي أن أعود إلى فترة الثلاثينيات، أو الأربعينيات، ولو لدقيقة واحدة أصبِّح فيها على الإخوة الزملاء من الموظفين الحكوميين -حفظهم الله وبارك لهم في وظيفتهم،وحكومتهم، ومرتبهم-..

وقد يسألني البعض لماذا أطلب فترة الأربعينيات بالذات دون غيرها..

ومن غير فلسفة، وفزلكة أقول: إن هذه الفترة كانت من أزهى عصور الموظّف المصري، فزمان كان الموظف يعود إلى البيت وهو مزقطط، والجرنال في يد، والبطيخة البلدي في اليد الأخرى، بخلاف البطيخة الصيفي التي وضعها في بطنه، دلالة على راحة البال، وعيشة الهنا، والبغددة التي يتمرّغ فيها، وأكبر مظهر لهذه العيشة الهنية الكرش الذي تميز به موظفو الثلاثينيات، والأربعينيات من القرن الماضي، والذي تكوَّن من طول الجلوس على المكتب، والغدا المسبِّك الذي أعدته البنت الشغّالة (وخلي بالك كان عنده خدَّامة)..

وأنا أتحدى أن يكرر هذا المشهد الكاريكاتوري موظَّفو القرن الحادي والعشرين؛ لأن هذا سيكلفه على أقصى تقدير عشرين، أو ثلاثين جنيهًا.. وربما لأنه اكتفى بمية البطيخ التي يعيش فيها!

كما أن الموظف زمان كان لا يزوج بنته إلا لموظف حكومة مربوط على الدرجة الثالثة -والناس درجات-، وكان يتفشخر بهذه الزيجة في

مكان عمله.. أما الآن فموظف الحكومة لا يساوي بصلة، أو على رأي المفتي يجوز إعطاؤه من مال الزكاة.

أيضًا الموظف زمان كان عنده شغالة ملزمة منه بأكلها، وشربها، وكسوتها، ونومها.. كما كان يذهب إلى المصيف للساحل الشمالي كل عام رغم أنه متوسّط الدخل، ومن المؤكّد أننا شاهدنا جميعًا فيلم «معلهش يا زهر»، وفيلم «دسوقي أفندي في المصيف»..

ويمكن تفسير عيشة السعد، والهنا التي كان يتقلّب فيها موظف الحكومة زمان بأنه كان يحصل على حقوقه كاملة، وفوقها بوسة، وربما تذاكر لمارينا هدية كنوع من الكرم الحكومي، ولذلك كان الموظّف مبسوطًا آخر انبساط من حياته، وأكبر دليل على ذلك اللوحات التي كانت تعلّق دومًا في المكاتب الحكومية، والتي كتب فيها عبارات الرضا الوظيفي الآتية: «**الصبر مفتاح الفرج**»، «**القناعة كنز لا يفنى**»، «**إن الله مع الصابرين**».

هذا ما كان عليه الموظّف زمان، وقل للزمان ارجع يا زمان.. أمّا الموظّف اليوم في عصر الإنترنت، والفضائيّات، والموبايل فيمكن تشخيص حالته في ما يلي:

- ضعف عام في المرتّبات يصل إلى حد الجفاف مقارنة بالمرتّبات الفلكيّة التي يأخذها أبناء البطة البيضة -موظفو القطاع الخاص-.

وهذا الضعف ترتبت عليه مضاعفات حادة تنذر بانهيار البلد كلها؛ كشيوع الرشاوي، والفساد بين صغار الموظفين.

- تفوّق ملحوظ في الصبر، فإذا أخذنا ترمومتر الصبر، وأردنا أن نقيس درجة الصبر عند الموظّف المصري؛ سنجد أنها قد تتجاوز ٤٠ درجة، لذا فمعظم موظفي الدولة عندما تنتهي مدة خدمتهم فإنهم يخرجون من الخدمة، ومعهم كل ما تكره الأنفس من الأمراض (ضغط – سكر – صمم – شلل نصفي – شلل رعاش – فشل كلوي – فيروس C – خشونة في المفاصل)، وللتأكّد من صحة ذلك اذهب إلى عيادات التأمين الصحي لترى جناية الحكومة على موظفيها.
- انخفاض مستويات المهارة، والكفاءة عند الموظفين، والعمال، وكثرة التزويغ من العمل.

- كثرة الإجازات السنوية غير الرسمية، وهي أعلى نسبة إجازات على مستوى العالم، فالموظف في مصر يحصل على ١٦٥ يومًا إجازة طوال العام (يومين أسبوعيًا + الأعياد الوطنية، والدينية)، وهو ما يمثل ٤٥ ٪ من إجمالي أيام العمل، ولذا فإن خسائر مصر بسبب الإجازات تتعدي ٤.١ تريليون جنيه سنويًا[1].
- انسداد في الشريان الحكومي الذي يضخ الدماء الجديدة كل عام في قطاع الوظيفة العامة، مما ترتب عليه ركود عام في التوظيف.
- غيبة مفاهيم الثواب، والعقاب، وتحمّل المسؤوليات، وعدم الحضور في الموعد المحدد لبدء العمل.
- ترهّل الجهاز الإداري، ووجود فائض ضخم في أعداد العاملين في الدولة، وهناك ظاهرة غريبة لافتة للنظر، فمعظم

---

[1] من مقال (سوبر موظفين)، بقلم الدكتور سامي عبد العزيز ، يوم الجمعة ٢/ ١٠/ ٢٠٠٩، بجريدة "روز اليوسف".

المصالح الحكومية يجلس على مكاتبها سيدات عاملات بأعداد كبيرة تفوق الرجال، والعيب على المساواة المبالغ فيها.

كثرة التعقيدات، والروتينيات التي تعكس حالة الغيظ، والعكننة التي يعيشها الموظف المصري..

كيف نطالب -إذن- بزيادة الإنتاج، وهذه السلبيات ما زالت موجودة. يجب تحديث الإدارة في الجهاز الحكومي أولًا بأول، واتخاذ كافة الإجراءات الإصلاحية لحل المشاكل المتعلّقة بالموظفين.

مصر هي أمي

«فيه أم كده بالذمة..»
«محمد سعد في اللمبي»

بعد إذن أستاذنا مؤلف كتاب (مصر ليست أمي دي مرات أبويا).. أنا أرفض عنوان كتابك هذا شكلًا، ومضمونًا -وأتمنى أن تكون ممن يتقبّلون الرأي الآخر- وبما أن أي رفض لا بد له من أسباب، ومسوّغات وجيهة، ومقنعة، وألا يكون رفضًا لمجرد الرفض -لذا فإن مبررات رفضي ستأتي في ثنايا هذا الفصل.

إن أي أحد ينتقد الأوضاع في مصر، أو يتحدّث بأسلوب التشاؤم عن أحوالها لا يفهم من كلامه أنه لا يحب مصر، بل إن شعور الحب الذي يملأ كيانه هو الذي يدفعه إلى هذا النقد البنّاء الذي يصحح الأوضاع، ويُحدد موضع الداء، ويقدّم العلاج، أي أن نقده هو عتاب الحب بين الأحباب.. لذا أنا أعتب على مصر؛ لأني إلى الآن -أنا وغيري- من الشباب لم نعمل في الوظيفة التي كان كل واحد فينا يحلم بها؛ بسبب نظام الكوسة، والمحسوبية، والواسطة.

أعتب عليها؛ لأنها تركت أولادها يهربون في مركب إلى الخارج، أو يغرقون في عبّارة دون أن تأخذ لهم حقهم، أو يموتون في قطار نتيجة الإهمال، أو يُفرَمُون تحت صخرة نتيجة التطنيش.

أعتب عليها؛ لأن هناك قاعدة أصبحت تُطبّق الآن، ويشعر بها الجميع، وهي أن القانون على الغلابة فقط، الذين ليس لديهم كارنيه حزبي، ولا توصية باشاوية، ولا معرفة علوية.

أعتب عليها؛ لأن اليوم الوحيد الذي تكون البلد فيه (بتبرق) كما تقول الأبلة نعيمة.. هو اليوم الذي يقوم فيه مسؤول كبير من الخارج بزيارتها، مثل يوم زيارة «أوباما». كذلك الشوارع تكون أنظف من الصيني بعد غسيله أثناء مرور وزير، أو محافظ بها.

أعتب عليها؛ لأنها فتحت الفضائيات على البحري لكل من هبّ، ودبّ من أهل التفاهات، وخاصمتِ العلماء، والمفكرين، والباحثين.

أعتب عليه؛ لأنها شغلتنا بأخبار اللعّيبة، والفنانين، والفنانات الأحياء منهم والأموات، وأعطتهم مساحات واسعة في الإعلام المقروء، والمرئي، والمسموع.

أعتب عليها؛ لأن الوطنية فيها اختزلت في تشجيع المنتخب، وأعتب عليها؛ لأنها لم توجّه هذه الجموع الغفيرة نحو مشروع قومي يأتي بالخير لها، ولهم.

أعتب عليها؛ لأنها سمحت بالرِّشوة في مصالحها، والمحسوبية في تعييناتها، والبلطجة، والتحرّش الجنسي في شوارعها في عز النهار، والعري، والإباحية في أفلامها، والاحتكار في أسواقها.

هو مجرد عتاب ليس إلا، وإن كان الجو قد أصبح خانقًا، إلا أني لن أقول مثل ما قال اللمبي الكبير: «**اللي يتخنق من أمه يعمل إيه؟!**»



مقولات المصريين في عصر المحروقين

أثناء كتابتي سطور هذا الكتاب كنت حريصًا على نقل نبض الشارع المصري، وتسجيل رد فعل المصريين تجاه مجريات الأحداث في مصر، فنقلت هنا مقولاتهم كما قالوها، وهي تعكس بحق ما يشعرون به، وما يحسونه من ضغوط الحياة التي حرقت كل شيء جميل جوَّاهم، وإنَّ أخشى ما أخشاه أن يحدث انفجار -يومًا ما- إذا زاد الضغط عليهم أكثر من ذلك، وإليكم هذه المقولات:

١ - "يخرب بيت أُم اللحمة"

محروم مصري

٢ - "إنت كافر.. عاوزهم يشيلوا المسجد عشان يوسّعوا الطريق"

سائق عصبي

٣- "الحكومة دلعت المواطن، ومطالب الناس ما بتنتهيش، والفقراء مش منتمين للبلد"

وزيرة مدلَّعة

٤ - "اللي عيّان، وفقير في بلدنا دي يروح يموت أحسن له"

عيّان مصري أكيد مات

٥- "والله أنزل أولع فيك"

مشجع متعصب قلت له إن ممكن الجزائر تفوز في تصفيات كأس العالم

٦- "شعب زبالة ابن كلب"

شاب مهزوم نفسيًّا يا ريت تلحقوه

٧- "ياريت اليهود يحتلّوها على الأقل حنعرف نعيش كويس"

من دون تعليق.

٧- "تعال يا باشا أوصّلك"

مواطن جبان

٨- "الناس تعبانة وما يعلم بيها إلا ربنا"

مواطن مطحون جدًّا

٩- "هما بيتلككوا لنا بأي حاجة عشان يغلوا علينا كل حاجة"

محروق من الأسعار

١٠- "منهم لله اللي سرقوها!"

مواطن غيور

١١- "لا الشباب بيجّوز، ولا المجوّزين بيخلفوا.. عايزين منا أكتر من كده إيه!.."

مواطن متعقد من العيشة واللي عايشنها

١٢- "اللي بنى مصر كان في الأصل بلطجي"

بلطجي مصري

١٣- "هوَّ فيه حد يقدر يلوي دراع مصر، دي مصر دي فتونة.."

١٤- "أنا ليَّ مين غيرك!"

منافق كبير قوي خايف على كرسيه

١٥- "أروح لمين وأقول يا مين ينصفني منك"

المواطن المصري

١٦- "المصري هيفضل مصري، النيل رواه وبياخد على قفاه."

كلام الشعب والله

١٧- "فأهل مصر عبيد من غلب"

(ابن القرية)

١٨- "الأول بنى مصر، والثاني حرر مصر، والثالث حافظ على مصر."

فلاح مصري أصيل

١٩- "برغم إن احنا متبهدلين في البلد دي بس مش حنسيبها."

غاوي همّ

٢٠- "القانون على الغلابة بس."

مظلوم مصري

٢١- "هوَّ فيه رئيس بيموت!"

الزعيم

٢٢- "عمري ضايع يحسبوه إزاي عليَّا"

مواطن محبوس في إشارة مرور

قطن وشاش

«مسيرها تروق وتحلى..»

«أحمد زكي في أحلام هند وكاميليا»

لم يكن شعاري -وأنا أقدم هذا الكتاب للقرّاء- أن أقول كما قال الشاعر الإيطالي دانتي: «**أيها الداخلون، اتركوا وراءكم كل أمل في النجاة**».. حيث كتب هذه العبارة على أبواب جهنم في رائعته الكوميديا الإلهية.

ولكني -ومع الاعتذار لهذا الشاعر العظيم- أقول لقرائي الأعزاء هذه العبارة: «**أيها الداخلون، احملوا معكم كل أمل في النجاة**».. وسأكتبها دومًا على أبواب مصر -جنة الله في أرضه- كما سمّاها الأقدمون، وذلك عندما تخرج الأفاعي منها..

فبهذه النظرة المتفائلة، والآملة سننجح في تضميد الحروق، والجروح التي أحدثها الواقع المعيش في مصر، الذي لو رآه شوبنهاور أبو التشاؤم بجلالة قدره لهان عليه تشاؤمه، وحمد الله على أنه لم يمت في غير بلده.

وحتى لا تكون الصورة سوداوية، أو نكون ممن يحدثون الجراح، ويتركونها تنزف دون إسعافها -دعَّمت الكتاب بحقيبة طبية بها قطن، وشاش لتضميد هذه الجراح، (آسف لعدم وجود قطن مصري لاختفائه من السوق فاضطررت أن أعتمد على المستورد)- هذا بالإضافة إلى بعض المضادات الحيوية، والكبسولات السريعة التي أعتبرها فيتامينات، ومقويات (مش اللي في بالك يا لئيم)..

وهذه الكبسولات لا توجد في الروشتة الحكومية، التي لا تصف من الدواء سوى المسكّنات التي تنوّم الألم، ولا تقضي عليه..

وإني أؤكد أن هذه الوصفة من عطارة المصريين المخلصين الذين عكفوا على بحوثهم، ودراساتهم لتحضير خلاصة الأعشاب المصرية لمصر حتى تتعافى من أمراضها المزمنة، وتعود كما كانت صبية.

وهذه الوصفة تتكون من تسع كبسولات:

الكبسولة الأولى: الاعتراف بالحقّ فضيلة، هكذا تعلمنا، وهكذا قالوا لنا في المدارس.. فمعرفة الحقيقة، وحدها أولى طريق الإنقاذ.. وأتساءل أيمكن لمريض أن يُشْفَى إذا ظل يقنع نفسه أنه ليس مريضًا..

الكبسولة الثانية: يجب البحث عن البوصلة التي تهدينا في سيرنا، أو إصلاح مؤشر البوصلة التي بين أيدينا، مع الأخذ في الاعتبار أنه لا يهمنا كيف كان الماضي بقدر ما يهمنا كيف يكون المستقبل.

الكبسولة الثالثة: كما تسن السكاكين يجب سن القوانين التي تذبح منظومة الفساد في مهدها قبل أن تستفحل.

الكبسولة الرابعة: ندع العلم، والدين يقودان دفّة الحياة، العلم يمسك دفة، والدين الدفة الأخرى، وبذا تسير السفينة إلى الأمام، بدل أن تعود إلى الوراء.

الكبسولة الخامسة: يجب أن تحلّ أفكار جديدة محل الأفكار القديمة التي انتهت صلاحيّتها بعد أن ثبت فساد المواد الحافظة التي أضيفت إليها، ويجب أن تكون هذه الأفكار خالية من الكوليسترول حتى لا تسبب ترهّلًا في الهيكل الحكومي.

الكبسولة السادسة: إذا كنا نشكو من سوء التخطيط، وعدم كفاءة الوزارات الحالية؛ فإني أقترح مجرّد اقتراح يكفله الجو الديمقراطي الذي نعيش فيه، وهذا الاقتراح ليس جديدًا من نوعه، بل إننا نعمل به في قطاع الكورة، فكما نتعاقد مع المدرّب الفلاني بالشيء الفلاني لتدريب منتخب، أو فريق معيّن، فإني أقترح أن نطبّق نظام التعاقد مع بعض

الأجانب في الدول المتقدمة، للنهوض ببعض الوزارات المتعسِّرة عندنا، فمثلًا يمكن التعاقد مع وزير ياباني ليدير قطاع النقل في بلادنا.. ووزير ماليزي ليدير قطاع الاقتصاد.. ووزير تركي لمجال السياحة.. ووزير ألماني في مجال الصناعة.. وأنا أعرف أن هذا الاقتراح سيثير حفيظة البعض عندنا، مما يخلق جوًّا من التنافس، وتبادل الخبرات، ومع زيادة الاحتكاك بيننا، وبينهم تنطلق شرارة التقدم، ويأتي اليوم الذي يتعاقد فيه وزراء من عندنا للاحتراف في دول أخرى.

الكبسولة السابعة: أنصح الأمم المتحدة بتصنيع كبسولات منشّطة للحكومات تُفْرَضُ إجباريًّا على كل حكومة تقصر في عملها، وتضيع شعبها.

الكبسولة الثامنة: يجب أن تكون هناك إجراءات جادة، وواقعية لحل كافة المشكلات التي يعاني منها المواطن المصري.

الكبسولة التاسعة: إن مصر لن تلحق بقافلة العالم المتقدم إلا بنهضة تعليمية شاملة، تواكبها نهضة على أعلى مستوى بالمواطن، فهو مفتاح التقدّم.

وفي نهاية الأمر، نفسي أصدّق كوكب الشرق حين قالت: «قد **يكون الغيب حلوًا إنما الحاضر أحلى**».



رسالة إلى الوالي

«إنهم جياع يا عظمة السلطان»
«الناصر صلاح الدين»

باسم القهر والقمع، والتكميم والتعميم (من عمَّمه أي لبسه العِمَّة).. باسم التهليب والتهريب، والسلب والنهب، والتدبيس والتلبيس.. باسم الطوارئ والاحتكار، والأسعار النار.. باسم الزحمة، واللحمة، والحصون، والسجون.. باسم الخصخصة، والمصمصة، والناس المكربسة، والديون المكدسة.. باسم خوفو وخوفي.. باسم النكسة، والوكسة، وقوات الكبسة، باسم زوار الفجرية، وعسس الداخلية.. باسم القطنة، والقمحة، والوجوه الكلحة.. باسم النيل، والأهرام و١٠٥٠٠ عدوا من الأيام.. باسم المنافقين، والمفسدين، والمرتشين، والمغرضين.. باسم الحقايق، والحرايق، وكل واحد من عيشته طاقق.. باسم الأنفلونزا، والسرطان، والفيروس سي كمان.. باسم الأمة والغُمة.. باسم الانفتاح، والانبطاح واللي جاي أسود من اللي راح.. باسم المهانة، والاستكانة والغلا اللي هرانا.. باسم الكويز، والكامب، وكل الغرقانين بلا ذنب.. باسم هيفا، ومروة، ونانسي،

وتامر، وعامر، والزعيم، واللمبي، وخالد.. باسم فلان، وفلانة، وعلان، وعلانة.. باسم كل المصريين من سينا لمارينا، ومن كفر الشيخ لشرم الشيخ.. ومن المعمورة للمنصورة، ومن سوهاج لأسيوط، ومن الشرقية لديروط، ومن بولاق أبو العلا لأرض اللوا.. ومن الأرض المغصوبة لأكتوبر للعروبة..

باسم كل هؤلاء، أبعث -كما بعث الزعيم- برسالة إلى لوالي، وهو كل من يلي أمر المصريين حفظه الله للبلاد، والعباد..

بداية -ولن أطيل- فخير الكلام ما قلَّ ودل، وإذا كان الرغي، والثرثرة ينفع على المقاهي، ومسامرات المصريين، فإنه لن يغني شيئًا على أبواب المسؤولين التي يقف أمامها ألف حاجب، وحاجب، لذا سأختصر، وألخص الرسالة في نقاط محددة..

أولًا: أنا أعشق كل مصري دخل التاريخ من أي باب كان، حتى لو كان باب زويلة نفسه، وأصبح ضمن المقرر الدراسي على الطلبة الغلبانين في المدارس؛ لأن هذا دليل على عظمة دوره في التاريخ، الذي تحركت مياهه الراكدة بضربة منه، ورغم أني لم أعاصر هذه الضربة، فإني شعرت بالعزة التي جعلتني أتشخر كلما جاءت ذكراها..

ثانيًا: كما أني أحب الناس الأصيلة التي تعمِّر في أي مكان تكون مسؤولة فيه؛ لأن بقاءها في هذا المكان دليل على مدى كفاءتها، وجهدها، وأنا لا يهمّني المدة التي يقضيها هؤلاء الناس، تصل إلى ٣٠، أو أربعين، أو ٥٠ ليس هناك مشكلة طالما أن الدنيا أمان، والحالة مستقرة.

- **ورسالتي إلى المسؤولين تتلخص في كلمتين:**

"الحقوا الناس قبل ما النار، والهم ياكلوا البقية الباقية فيهم.. حسوا بمشاكلهم، وآلامهم، وعيشوا معاهم أحلامهم، وأمنياتهم، وحققوا لهم ولو جزء من اللي هما عايزينه، ساعتها بس حيقفوا جنبكم، وحيكونوا أول صوت يدافع عنكم.. ابنوا لهم مصانع أكثر، وأكثر يشتغلوا فيها.. الصحراء أمامكم على الجانبين، عمّروها، وخضّروها، فهم عايزين كده.. عايزينها تبقى خضرا الأرض اللي في الصحرا.. التعليم اهتموا بيه أكتر من كده، وإوعى تغيب عنكم الحقيقة الواضحة إن مستقبل البلد دي مش حنقدر نبنيه إلا بنهضة علمية، وتعليمية شاملة..

البلد دي أمانة في إيديكم.. يا ريت تحافظوا عليها، وتصونوها بين عينيكم.. وتلموا اللي اتبعتر منها هنا وهناك.. لموا ولادها، واحضنوهم، وإوعى تفرطوا فيهم.. هاتوا العقول اللي بره، وبالفلوس اللي بتتصرف في الفاضي فكروا معاهم لبكره، للأجيال اللي جايه..

وأخيرًا خلُّوا بالكم من عمرنا اللي بتبخر بين إيدينا.. اللي بيضيع في الطوابير، والمواصلات.. في الحشيش، والمخدّرات.. في السينما، والفضائيات.. في الرغي، والثرثرة في الموبايلات.. في بلاد برّه، وبلاد جوّه.. في الدواير المغلقة اللي مش عارفين نخرج منها.. في الزجاجة اللي محبوسين فيها من زمان.. يا ريت تفتحوا الغطا مش عشان نصعد لعنق الزجاجة.. عشان ناخد حبّة هوا نتنفس بيهم قبل ما نموت من الكتمة.. وإوعى تخافوا منا دا إحنا غلابة، وشعب طيب بس غلباوي يحب ينقد عشان يبني من جديد.

والسلام ختام، وابقوا سلمولي على محمدين اللي كان واقف قبلي في الطابور.. أكيد وصل بعد طول صبره.. وقولوا له اللي يصبر ينول.. ونحن السابقون وأنتم اللاحقون..

وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

سؤال الكتاب

مين اللي سرق مصر؟

معرفتش مين اللى سرقها؟!

بس أنا عرفت

لو أنت كمان عرفت

اتصل على الرقم ده

زيرو أربع أصفار صفرين

وابقى قابلني لو قبضوا عليه!

مر الكلام

زي الحسام

يقطع مكان ما يمر

أما المديح

سهل ومريح

والكلمة دين

من غير يدين

بس الوفا على الحر

أحمد فؤاد نجم

الفهرس